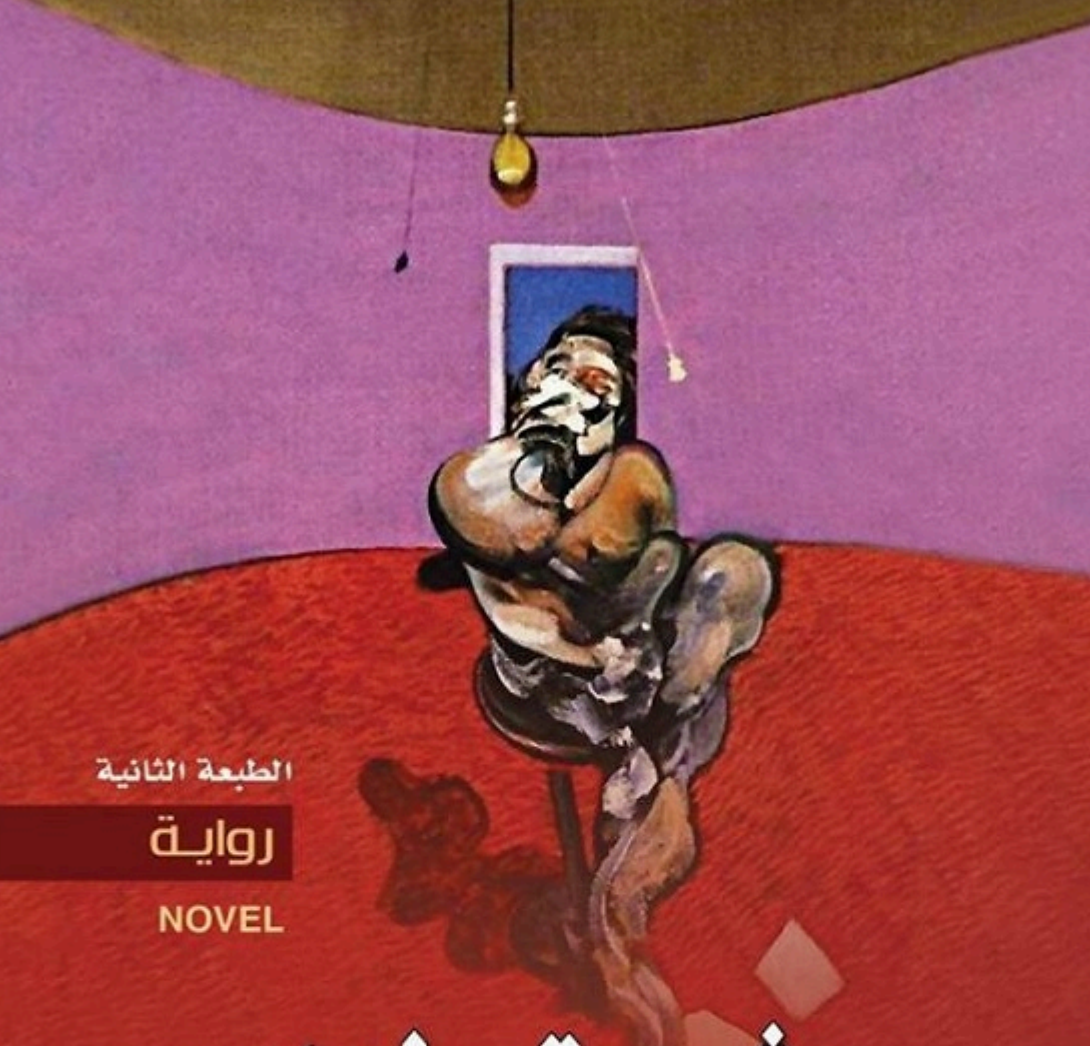

الطبعة الثانية

رواية

NOVEL

مشرحة بغداد

Baghdad´s Morgue

برهان شاوي

Burhan Shawi

MESOPOTAMIA

مَشْرَحَةُ بَغْدَادَ

مشرحة بغداد

رواية

برهان شاوي

الطبعة الثانية 2014

عدد الطبع 1000

عدد الصفحات 232 – القياس 14.5 × 21.5

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 565 لسنة 2014

تنفيذ وإخراج صفحات للدراسات والنشر – سورية

MEZOPOTAMIA
For Publication and Distribution
بغداد - شارع المتنبي
دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع

موبايل: 07905139941

hamawendi@yahoo.com

mazin24@ymail.com

بُرهان شاوي

مَشْرَحَةُ بَغْدَادَ

رواية

2014

الطبعة العراقية

المصححة والمنقحة والمزيدة..

1

الذبح بسكين المطبخ في البانيو

الساعة الآن قد تجاوزت منتصف الليل. مشرحة بغداد قد أوصدت أبوابها. ليس هناك سوى الطبيب الخفر ومساعده والحارس الخفير. المنطقة التي فيها المشرحة، والشوارع المؤدية إليها، والأزقة التي تحيطها، بل وبغداد كلها غارقة في الظلام.

في هذه الليلة المظلمة التي اختفى من سمائها القمر، قام الحارس آدم، قبل أن يأوي إلى غرفته، بجولته الليلية، فتأكد من الأبواب المقفلة في الطابقين الأرضي والأول حيث غرف الموظفين الإداريين وبقية الأطباء والممرضين المساعدين، وتأكد من أن الطبيب الخفر والممرض المساعد قد ناما.

الخفير آدم كان على غير عادته الليلة، فثمة هاجس خفي يدفعه لإنهاء جولته الليلية الاعتيادية، والتوجه إلى غرفته في الطابق تحت الأرضي، لمشاهدة الأقراص المدمجة التي اشتراها نهارا من الباب الشرقي وسط بغداد.

الطابق تحت الأرضي ليس طابقا للاستخدام الوظيفي والإداري، فهو يتألف من ممرات طويلة متقاطعة وفارغة. في أحد هذه الممرات توجد غرفة الحارس آدم، وفي الممر نفسه تقع قاعة التشريح، القاعة الكبيرة التي تحفظ فيها الجثث الجديدة من أجل تشريحها. في الممرات الأخرى توجد الثلاجات التي تحفظ فيها الجثث المجهولة، أو التي تلزم الجهات الحكومية لأغراض التحقيق.

نهار هذا اليوم أقنعه البائع الذي يزوده بالأفلام الجديدة، الأفلام الأجنبية، والأفلام الجنسية، أن يشاهد فيلما تسجيليا عن عملية ذبح حقيقية وجد في بيت نائب أثر مداهمة قوات الشرطة له . الفيلم المصور تم تسريبه مستنسخاً على قرص (دي في دي) من قبل بعض الشخصيات الحكومية المتصارعة.

الحارس الخفير آدم يشعر بقلق خفي. لأول مرة تدفعه رغبة في أن يشاهد فيلم الذبح قبل الفيلم الجنسي. كان كلّما ذهب لشراء أفلام جديدة، والتي غالبا ما تكون أفلاماً هندية، تاريخية، أو أفلام رعب، يزوده البائع بما لديه من أفلام جنسية. وعندما يخلو إلى نفسه فأنه يبدأ بالأفلام الجنسية، وبعد ذلك يشاهد أياً من الأفلام الجديدة.

لا يدري لماذا هو قلق الليلة، سأل نفسه عن دافعه لأن يشاهد هذا القرص التسجيلي الواقعي قبل الفيلم الجنسي فلم يجد مع نفسه جواباً مقنعا. الذي يعرفه أن هناك رغبة داخلية مشبوبة بخوف خفي وأسئلة غامضة لم تتضح في أعماقه تدفعه لمشاهدة ذلك القرص.

عندما هبط الحارس آدم إلى الطابق تحت الأرضي أحس برهبة وهو ينظر إلى الممرات الخالية والمتقاطعة. استعجل خطوه نحو غرفته وكأن هناك من يطارده، وارتبك وهو يفتح باب غرفته بالمفتاح.

دخل الحارس آدم غرفته وضغط على زر التيار الكهربائي. اتضحت ملامح الغرفة الصغيرة التي أعطيت له للمنام والمعيشة. جلس على الصوفة الجلدية التي يستخدمها كسرير للنوم أيضا، ثم ضغط على الريموت كونترول فأضاء جهاز تشغيل أقراص ال (دي في دي)، كما بدأت الشاشة الزرقاء تشير إلى اختيار البث التلفزيوني أو القرص المدمج، فضغط آدم باتجاه القرص المدمج.

كانت أصابعه ترتعش، وهو يضع القرص المدمج، في موضعه من جهاز التشغيل. ضغط على إشارة السهم التي تعني التشغيل فبدأت الصورة تظهر على الشاشة.

كان التصوير قد تم بكاميرا فيديو عادية ومن قبل شخص هاو غير متخصص، فهي تتحرك كثيرا وتتنقل بشكل عشوائي في المكان، لكن برغم ذلك فالأمر برمته ليس فيلما سينمائيا وإنما توثيق لعملية ذبح إنسان.

في الصورة يبدو وجه فتى في السادسة عشرة أو أكثر بقليل. كان يجلس في وسط المكان. وجهه مذعور ونظراته قلـقـة، لكن كان يحاول أن يبدو طبيعيا. ظهر على الشاشة خمسة أشخاص آخَرون، إضافة للمصور حامل الكاميرا. إثنان يجلسان على صوفة ذات إطارات مذهبة، وهما

يرتديان الدشداشة العربية البيضاء. أحدهما تنبت لحية خفيفة على وجهه، أما الآخر فكانت لحيته السوداء الكثة تغطي معظم وجهه، بينما في الجهة الأخرى خلف الفتى المذعور يقف ثلاثة أشخاص، يرتدون الملابس المدنية الأوربية، وسراويل جينز وفانيلات خفيفة مختلفة الألوان. أحدهم كان يمسك بيده سكين مطبخ كبيرة. الجميع لا يتجاوزون الثلاثين من العمر باستثناء الفتى المذعور الذي بدا أقل عمرا بشكل واضح..الفتى المذعور يجلس في وسط الغرفة بملابسه الرثة وملامحه البسيطة والتي تشير إلى أنه ينتمي للمناطق الشعبية الفقيرة في العاصمة بغداد.

- ما هو اسمك..؟

سأله أحد الرجال الجالسين.

- اسمي آدم المهدي..

أجاب الفتى المذعور بصوت خافت ومرتعش.

- كم عمرك؟

- لا أعرف كم عمري..

تتعالى ضحكات الرجال المستجوبين. تنتقل الكاميرا لتسجل وجوههم وهم يضحكون..

- كيف لا تعرف كم عمرك؟

سأله أحد الرجلين الجالسين.

- والله العظيم لا أعرف كم هو عمري..

- أمن المعقول أن لا تعرف كم هو عمرك؟

كرر السؤال الرجل الآخر بدشداشته البيضاء، فأجاب الفتى الخائف بنبرة منكسرة وكأنه يتوسل أن يصدقوه..

- أقسم بالله العظيم، وبالأنبياء، لا أعرف كم هو عمري بالضبط..

- طيب ، في أي صف أنت؟

- أنا تركت المدرسة حينما كنت في الصف الخامس الابتدائي..

كان الفتى آدم المهـدي مطيعا ويحاول الإجابة بكل عفوية عسى أن يكسب ثقتهم كي يعفوا عنه ويطلقوا سراحه.

- يعني أنت تقرأ وتكتب؟

- أقرأ فقط..ولست جيداً في القراءة..

كان الرجلان الجالسان على الصوفة، يتناوبان الأسئلة، فسأله أحدهما:

- وماذا تفعل في منطقتنا؟

- أنا كاسب، أجمع بقايا أكياس الأسمنت من أماكن البناء لتصنع أمي منها أكياسا صغيرة لبائعي الخضروات، ونعيش من بيعها..

- أنت تكذب؟

صرخ فيه أحد الشبان الثلاثة الواقفين، وشتمه آخر وفي صوته نبرة حقد واضحة:

- ابن النعال .. أتكذب علينا..؟ أنت جئت متجسسا لجيش المهدي
- والله أنا لا أكذب.. ولا أعرف جيش المهدي

من الخلف رفسه أحدهم، وشد الذي يمسك بيده سكينا شعره بقوة مقربا السكين من عنقه وهو يقول له مهدداً:

- إذا لم تقل لنا من أنت، وماذا تفعل في منطقتنا، ولمن تتجسس، سنذبحك، وإذا تعاونت معنا سنطلق سراحك، أفهمت؟
- فهمت..

كان الفتى يرتعش خوفاً، بينما ابتسم الرجل الجالس ذو اللحية السوداء الكثة، وسأل :

- قل لنا إذا لِمَ أتيت لمنطقتنا؟
- والله العظيم، كما قلت لكم، أتيت لجمع الأكياس التي يحفظ فيها الأسمنت..
- ولماذا منطقتنا..؟ ألا توجد مناطق أخرى؟

حاول الفتى أن يوضح وضعه الملتبس والذي لا يعرف كيف سينتهي، فقال بنبرة فيها توسل، محاولاً أن يثير شفقتهم على حاله :

- توجد.. نحن نعيش من وراء صناعة الأكياس منذ سنوات؟ أنا أدور في المناطق الغنية التي فيها بناء، لأنه إذا كان هناك بناء يعني وجود أكياس الأسمنت، وقد وجدت في منطقتكم أكثر من بيت يتم بناؤه، لهذا أنا في منطقتكم.

فقال له الرجل الآخر ذو اللحية الخفيفة، والذي يجلس على الصوفة:

- لكنك لست وحدك. أحيانا تأتي معك امرأة..من هي..؟

- إنها أمي، تأتي معي أحياناً لنجمع أكبر عدد ممكن من أكياس الأسمنت..

فقال أحد الرجال الثلاثة الواقفين خلفه بنبرة فيها استهزاء وسخرية:

- هذا يعني أن أمك أيضا تتجسس لجيش المهدي..؟

- والله لا نعرف جيش المهدي..وليست لنا أية علاقة به..

فرفسه الرجل الآخر، الذي يقف إلى جانب حامل السكين، على ظهره وهو يصرخ فيه:

- حقير ابن الحقير.. اعترف..

فقال الفتى المذعور بصوت مرتعش، مخنوق، مشبوب بنبرة تميل إلى البكاء :

- أعترف بأي شيء..؟ وعن أي شيء أعترف؟

فقال له الرجل الجالس ذو اللحية السوداء الكثة، وهو يبتسم:

- اعترف أنك من جيش المهدي وأنك كنت تتجسس علينا وسنطلق سراحك..

صمت الفتى المذعور لحظة، وكأنه لا يصدق ما يقال له، فسأل :

- يعني إذا اعترفت ستطلقون سراحي ؟

فأجاب الرجل الآخر ذو اللحية الخفيفة، مبتسماً:

- طبعا سنطلق سراحك..

صمت الفتى المذعور لثوان، ثم قال:

- زين.. بماذا علي أن اعترف..؟ ماذا علي أن أقول..؟

فقال له الرجل ذواللحية الكثة، بصوت مليء بصرامة حاول أن يخفف منها جاهداً:

- قل إنك من جيش المهدي..

نظر الفتى إلى الرجلين الجالسين أمامه وقال بنبرة فيها حيرة ويأس:

- لكني لست من جيش المهدي ولا أعرفه ..؟

فقال له حامل السكين وهو يضربه على مؤخرة رأسه:

- يعني أنت لا تريد أن تخرج سالما من هنا ؟

- أريد، لكنكم تريدونني أن أعترف وأقول إني من جيش المهدي، وأنا لستُ كذلك.

فنظر إليه الفتى ذو اللحية الخفيفة، وقال بنبرة فيها شيء من العتاب:

- إذن، أنت لا تريد أن تخرج سالما من هنا..

صمت الفتى لثوان، ثم سأل بخوف ورهبة:

- يعني لو كذبت وقلت إني من جيش المهدي ستطلقون سراحي؟

- نعم

- زين.. قولوا لي ماذا علي أن أقول وسأقوله لكم..

فقال الرجل ذو اللحية الخفيفة وكأنه يلقنه:

- قل إنك من جيش المهدي

ردد الفتى المذعور خلفه بصوت متحشرج ومرتعش:

- أ..أ.. أنا من.. جيش .. المهدي..

- وجئت لأتجسس عليكم..

لم يكرر الفتى المذعور الجملة الثانية التي لقنه إياها الرجل ذو اللحية الخفيفة، إذ قال بيأس وتوسل:

- لكن والله ما جئت لأتجسس عليكم..

نظر حامل السكين إلى الجالسين. هكذا كانت الكاميرا تصور وجهه وهو يقول:

- الآن حصلنا على اعترافه بأنه من جيش المهدي..وأعتقد أن هذا يكفي يا شيخنا، هذا يعني حل عليه القصاص.. أليس كذلك..؟

سُمع الصوتُ قبل أن تنتقل الكاميرا إلى وجه الرجل ذي اللحية الكثة وهو يقول بصوت فيه خشوع وجدية:

- على بركة الله.. لقد اعترف..وحل عليه القصاص..على بركة الله..

كشفت الكاميرا، برغم بدائية التصوير، عن تسجيلٍ وافٍ للحدث وللمكان. اقترب إثنان من الواقفين خلف الفتى المذعور. أمسكاه من ذراعيه، وسحلاه إلى غرفة الحمام سحلاً، وأجبراه على الجلوس على ركبتيه عند حافة الحوض (البانيو)، وظلا ممسكين بذراعية، بينما اقترب حامل السكين ليتوسطهما، وليقف خلف الفتى الذي يجثو على البانيو.

الفتى مذعورا، كان ساكنا، مترقباً ماذا سيحدث، صامتاً صمت الحملان قبل الذبح، مستسلما ببرود، وفي أعماق عينيه رعب إنساني وكثافة من التوسل، وكأنه كان يأمل أن يُعفى عنه، برغم أنهم كانوا يتهيأون لذبحه..أو وكأنه كان لا يعرف إن كان ذلك حقيقة أم مجرد تمثيلية لإخافته..؟

انتقلت الكاميرا إلى وجه الرجل حامل السكين، الذي كان يبتسم للكاميرا، وهو يقول:

- على بركة الله..

في هذه الأثناء ضغط الإثنان على ذراعي الفتى المذعور الممدودتين على جانبي البانيو، بينما أخذ الفتى المذعور يبدي مقاومة ضعيفة لاإرادية. في تلك اللحظة أمسك حامل السكين بخصلة شعر أمامية ساحبا رأس الفتى المذعور إلى الأعلى بقوة، بينما مرر نصل سكينه الكبيرة بقوة على عنقه، ذابحا إياه. نفر الدم بقوة ملوثا الحائط.

أخذ الفتى الذبيح يرفس برجليه ويهز كتفيه المقبوض عليهما بقوة وثبات، بينما الدم ينفر من عنقه بغزارة ليملأ الحوض.. وكأنه كان يريد أن يعب ما يستطيع من الهواء. إلا أن حامل السكين لم يكتف بما فعل، وإنما أخذ يقطع العنق بعمق، محاولاً أن يجز الرأس.لكنه لم يتمكن من ذلك.

كان جسد الفتى الذبيح يتحرك عند منطقة الكتفين، بينما جذوة الحياة أخذت تهمد في الجسد شيئا فشيئا. كان الدم ينزف بقوة من العنق، بينما نقلت الكاميرا صوت حشرجة الهواء عبر حنجرته المقطوعة، فبدت مثل حشرجة البقرة الذبيحة وهي تودع آخر نفس وتتذوق آخر طعم للهواء.

بعد أن همد جسد الفتى المذبوح بالكامل.. ترك الرجلان ذراعية فانهد الجسد على جهة البانيو بينما ظلت الرأس المقطوعة مرتبطة بشيء قليل من الجلد ببقية جسده، متدلية على حافة الحوض.

أخذت الكاميرا تتنقل بشكل عشوائي في المكان، حيث صورت حامل السكين وهو يمسح نصل سكينه بقميص الضحية، وهو يبتسم، كما سجلت أصوات مرحة غير واضحة. انتقلت الكاميرا لتصوير سقف الغرفة..وبدا وكأنها وضعت على طاولة أو كرسي، فظهرت صورة القرآن الكريم في مقابل عدسة الكاميرا، ثم عم السواد، وانقطع البث.

❊ ❊ ❊ ❊

شعر الحارس آدم بالرعب. أحس ببلل بين فخذيه، فعرف أنه قد بلل سرواله قليلا دون أن يدري. نهض مرعوباً، وبشكل لا إرادي أغلق باب غرفته بالمفتاح من الداخل، ثم عاد جالسا على الصوفة الجلدية، ساكنا كالتمثال.

فكر لثوان بتلك اللحظة التي مس نصل السكين فيها عنق الضحية، وبتلك الثواني الأولى من عملية الذبح حينما شق النصل عنق الفتى، بينما كان هو حياً، وشعور الفتى المذعور بعد تلك اللحظات، لاسيما وأنه لم يمت مباشرة، وإنما استغرق موته دقائق إلى أن نزف دمه، وأنطفأت الحياة في جسده.

فكر الحارس آدم مع نفسه..صحيح أنه يعمل في مشرحة، وأنه رأى عشرات الجثث المشوهة.. جثث مقطوعة الرؤوس.. جثث مقطوعة

الأطراف.. جثث بعيون فـُقأت أو قلعت من محاجرها.. جثث بجماجم مهشمة بالمطارق، أو مثقوبة الجماجم بأزاميل حادة.. جثث مقطوعة اللسان.. جثث مقطوعة الآذان.. جثث محروقة.. جثث تم تعذيبها ومن ثم أعدمت.. جثث تالفة قد انتشلت من الأنهار.. بقايا أجساد بشرية لملمت من أماكن انفجار السيارات المفخخة أو الانتحاريين الإسلاميين.. جثث يراها يوميا في القاعة الكبيرة، لكنه لم ير عملية قتل، بل ذبح إنسان حي قط.

لا يدري كم من الوقت مر عليه وهو في جلسته الجامدة تلك. شعر برغبة في التكور على نفسه.. استلقى على الصوفة الجلدية ماداً اللحاف الذي كان عند طرفها على جسده، لكنه ترك المصباح مضاءً.

كان يشعر بالبرد. غطى رأسه باللحاف وأجبر نفسه على النوم. كان يرتجف لا إراديا. بقي للحظات متمددا على ذلك الوضع، لكنه قام فجأة فأطفأ النور الكهربائي وعاد إلى الصوفة مستلقياً بعد أن غطى جسده ورأسه باللحاف ثانية.

تقلب في نومه كثيراً. استيقظ أكثر من مرة. فتح عينيه وحدق إلى سقف الغرفة المظلمة. استذكر لحظة الذبح وما تلاها فقط. حاول العودة إلى النوم. ظل فترة لا يفكر في شيء سوى النوم. لا يدري كيف سقط في هاوية النوم.

2

الآخـــــرون

على الرغم من أن الحارس آدم يبلغ الثانية والعشرين من العمر، إلا أنه يبدو للناظر أكبر من سنه ذاك بسنوات، وبالرغم من أن ملامحه عادية إلا أن شخصيته كانت ملفتة للنظر، لاسيما العينين الواسعتين والنظرة المتقدة. كان شاحب الوجه، ناحل الجسد، كث الشعر، طويل القامة. لم يكن يهتم بمظهره الخارجي. يلبسُ دائماً بنطلوناً أسودَ وقميصاً أحمرَ، يرتدي فوقهما قميصا طويلا أزرق اللون يصل إلى ركبتيه ليميزه بأنه ينتسب إلى المكان الذي يعمل ويسكن فيه، لكنه برغم بساطة هندامه يبدو أنيقا.

كانت تنبعث منه دائما رائحة كريهة، نتنة، رائحة الجثث المتفسخة، ورائحة الأدوية المعقمة، التي ربما علقت بثيابه من خلال عمله في المشرحة التي يقضي فيها معظم وقته، ومن خلال استخدامه المعقمات باستمرار. بالرغم من أن هذه الرائحة لم تلتصق به إلا منذ أشهر.

صحيح أن رائحة المواد المعقمة كانت تفوح منه منذ بداية عمله في المشرحة، لكن رائحة الجثث المتفسخة لم تلتصق به إلا منذ أشهر ستة

تقريبا. ضايقه الأمر في البداية، لكنه نسي ذلك، وألفه، لأن كل العاملين في المشرحة تنبعث منهم هذه الرائحة، رائحة الجثث المتفسخة والمواد المعقمة.

كان يبدو دائماً مشغول الذهن، صموتاً، لا يتحدث مع أحد قط، إلا إذا سُئل، وحتى حينها كان يجيب باقتضاب شديد، بل كان يبدو وكأن الإجابة تعذبه أو أن السائل يضطهده بالسؤال، مما يدفع السائل إلى الشعور بالشفقة وربما بالذنب.

لم يواصل آدم دراسته، فقد انقطع عن الدراسة وهو في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، بعد أن توفي والده وبقي وحيداً مع أمه. أضطر للتنقل بين حرف ومهن مختلفة، عاملا في البناء، عاملا في مطعم، ساقيا في بار، حارسا في بناية، وأخيرا وجد قريب لأبيه له وظيفة حارس المشرحة، التي كان هو حارساً لها، لكنه آثر الإحالة إلى التقاعد، إذ توسط لدى إدارة المشرحة لقبول آدم مكانه لاسيما وهو متعلم، وشاب في أوج قوته الجسدية، فوافقوا على تعينه حارساً للمشرحة بدلاً عنه.

ليس لدى الحارس آدم أي أخوة أو أخوات، فهو وحيد أمه التي هي بدورها وحيدة وكأنها شجرة في صحراء، مقطوعة وبلا جذور. وحتى هذا الرجل الذي وجد له هذه الوظيفة، فأنه يقرب لأبيه من بعيد، كان وحيداً أيضاً، بل إن أباه كان بلا أخوة أو أخوات، وكان وحيد والديه أيضا، اللذين كانا بدورهما وحيدين وبلا جذور. لقد كان الحارس آدم مثل ورقة مهملة سقطت من شجرة مجهولة، بلا جذور.

كان آدم يحب القراءة، بل هو مدمن عليها، فهو يقرأ بنهم ، يقرأ كل شيء، لكنه يتعمق في قراءة الكتب الفلسفية، والشعر المترجم، والكتب التي تهتم بعلم الجمال،وتاريخ الحضارات. تعمقت هذه القراءات بعد أن انقطع عن الدراسة، وكأنه أراد بذلك أن يعوض عن عدم إكماله للدراسة. بل إنه تعلم اللغة الإنكليزية، وأجاد القراءة فيها، وكأنه بذلك أراد أن يعيد صياغة نفسه، لكن الدروب كلها كانت مسدودة في وجهه، إلا درب المشرحة التي فتحتْ له بوابتها الحديدية المخيفة على آخرها.

كل شهر، وفي نهار أول جمعة بعد استلام الراتب، كان يذهب إلى شارع المتنبي ليشتري الروايات والكتب الفلسفية والدينية والمجلات الفنية المتخصصة بمتابعة المشاهير وخاصة الممثلين والممثلات، وهذا ما منحه لقب (الفيلسوف) بين موظفي وعمال المشرحة سواء من باب السخرية أم الاحترام. كان معظم الأطباء أثناء مناوبتهم الليلية في المشرحة يستعيرون منه المجلات الفنية طردا للضجر لذا كانوا يجاملونه أيضا ويمزحون معه. وعلى الرغم من أنه يذهب مرة واحدة في الشهر إلى سوق الكتب الشهير ويزور المكتبات، إلا أن غرفته كانت مليئة بالكتب والمجلات وأقراص الأفلام المدمجة.

كان يحس بعزلة داخلية قوية وبشعور حاد بأنه وحيد ولا أحد يفهمه.ولم يكن هذا الأمر يزعجه أبداً، لأنه كان يؤمن بأن عالم الإنسان الداخلي هو المهم، فهو الجوهر، وكل ما عدا ذلك ليس إلا القشور. العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل بل وحتى العلاقة الزوجية ليست

إلا القشرة التي تحيط بالوجود الإنساني، فالإنسان، كما كان يعتقد، وحيد في هذا العالم بكل الأحوال، وإن إمكانية التواصل البشري هي محاولة يائسة، فالإنسان كائن مرعوب، وحيد، وأن تشكل المجتمع البشري ليس إلا الدليل على محاولة الإنسان الفرد للهروب من الوحدة.

كان متقوقعا ًعلى ذاته. يخاف الناس في أعماقه. يخاف كل الموظفين في المشرحة. يخاف الأطباء والإداريين. يخاف الجنود الأجانب، بالرغم من أنهم أكثر تهذيبا من بعض الجنود العراقيين الذين يمر بهم عند نقاط السيطرة التي يعبر منها أحيانا. كان يخاف نظرات السابلة في الشوارع. يحس نفسه أحيانا أنه قريب من القنفذ، الذي يتقوقع على ذاته.

الإنسان الوحيد الذي لا يخاف منه، على الرغم من أنه يرتاب فيه أيضاً من بين الأحياء، هو بائع الأقراص المدمجة الذي يشتري منه الأفلام. أما الموتى، جثث الموتى، فهم الأصدقاء الذين لا يخافهم بل ويتعاطف معهم، ويحترمهم لأنهم عبروا حاجز الحياة ودخلوا في المنطقة الأخرى حيث لا شعور بالألم. بل كان يحس بالإشفاق على أهلهم الذين يراهم يتوافدون على المشرحة عند وصول جثة ما متباكين أو نائحين. يشفق عليهم لأنهم لا يدركون بأن أحبتهم تجاوزوا المعاناة والألم في هذه الدنيا، ويشفق عليهم أيضا لأنه يرى عمق الألم والفقدان الذي يعانيه هؤلاء الأهل.

أحيانا، بعد منتصف الليل كان ينسل من غرفته، كالقنفذ تماماً، يمشي متردداً، يتوقف حذرا، يتلفت، ثم يمضي في طريقه، ليدخل إلى قاعة التشريح فيتأمل الجثث بلا خوف أو رهبة، مهما كانت بشاعة المنظر، فقد كانت أعداد من الجثث تحمل إلى المشرحة مشوهة أو ناقصة، أو حتى اشلاء جثث. قليلة جدا تلك الجثث التي تبدو كاملة لأن أصحابها إما ماتوا في المستشفى وإما لأسباب صحية في بيوتهم.

بمرور الوقت صار الحارس آدم يقيم علاقاته الخاصة مع بعض الجثث.. نعم بعض الجثث وليس كلها. فحينما يأتون بجثة ما ويشعر بإحساس التعاطف معها فأنه يتتبع وضعها لحين إخراجها من المشرحة لتدفن، بل كان يعتني بتلك الجثث، إذ كان يذهب إلى قاعة المشرحة أو قاعة الثلاجات ليراها وكأنه يزور صديقاً، أو ليغطيها إذا ما تكشفت وسقط عنها الغطاء، أو يعدل من وضعها إذ ما كانت قد القيت دونما إهتمام.

كان أحياناً يحس بمشاعر حب خاصة تتملكه نحو جثث بعض النساء الشابات..لكن كانت تلك حالات عابرة، إلا أنه مرة واحدة مر بتجربة عاطفية عاصفة، حينما أحب جثة فتاة قروية في الثامنة عشرة من العمر، ماتت نتيجة تلقيها طعنة في القلب من أخيها الذي يصغرها بسنتين في العمر، لأن أهلها شكّوا بحملها، حينما انقطعت عنها الدورة الشهرية لثلاثة أشهر متتالية وانتفخ بطنها قليلا، فشك الأهل فيها، بالرغم من أنها أكدت لهم بأنها بريئة، ولم تسمح لأي رجل أن يقترب منها.. وهذا ما أكده الأطباء الشرعيون فيما بعد، إذ اكتشفوا بأنها عذراء فعلاً، وإن انتفاخ بطنها

ليس ناتجا عن حمل، وإنما لاضطرابات في الرحم والتهاب في المبيضين سبب تجمع دماء نزول العادة داخلها مما أدى لانتفاخ بطنها.

عشق الحارس آدم تلك الفتاة الريفية، أو جثمان الفتاة، عشقا قويا مليئا بالحنان والشفقة، عشقا حقيقيا كما كان يقول آدم لنفسه، لأنه كان يعتقد بأن البشر الأحياء حينما يحبون بعضهم بعضا فأنهم بذلك يحبون ذواتهم في الآخر، وينتظرون المتعة منه ومعه، بينما حبه لجثمان الفتاة الميتة هو حب حقيقي لأنه لا ينتظر منها أي شيء، فالحب الحقيقي هو الحب المليء بالتعاطف والشفقة قبل الرغبات وانتظار المتع والمبالغة في تقدير الذات من خلال الآخر.

في البداية رأى بعض أهلها، أمها وفتاة أخرى خمن أنها أختها ورجلاً ملثماً آخر جاء معهم، وحينما ألقى نظرة إلى الجثمان شعر برقة الكائن المغطى بإزار صوفي أحمر من خلال صغر حجم الجثة. لم يكن يعرف أنها جثة أنثى إلا عندما صاح فيه مساعد الطبيب بأن يحمل السرير المتحرك لنقل الجثمان، ووضعوا الجثة عليها انكشف الإزار عن وجهها وعن خصلاتها الذهبية. فأحس بالذهول لجمال هذه الفتاة الجميلة التي بدت له نائمة.

كان أهل الفتاة قد جاءوا بجثمانها عصرا قبل نهاية الدوام بقليل. وبالتالي كان عليهم انتظار الأطباء إلى اليوم التالي كي يقوموا بتشريح الجثمان وتقديم التقرير الطبي حول سبب الوفاة، لذا فقد أخذ آدم الجثة

إلى قاعة التشريح يرافقه مساعد الطبيب، وهناك تركا الجثة على النقالة وخرجا، لكنه ظل مسكونا برغبة عارمة في أن يذهب لرؤية الفتاة، ولتأمل وجهها الجميل، البريء، والحزين، الذي أصابه بالذهول حينما رآه عندما نقل الجثة.

حين صعد إلى الطابق الأرضي مرة أخرى وجد أن أم الفتاة كانت تبكي بحرقة بينما كان المرأة الأخرى تحاول أن تهون عليها بالرغم من أنها كانت تبكي أيضا، بينما ظل الرجل الملثم حزينا وغاضبا في الوقت نفسه. كان واضحا أنهم قد علموا من إدارة المشرحة بأن عليهم العودة في اليوم التالي لأن الدوام قد انتهى ولا يقوم الأطباء بالتشريح إلا صباحاً.

نزل الحارس آدم إلى غرفته في الطابق الأسفل حيث قاعة الجثث. عمل لنفسه الشاي، لكنه لم يشرب منه، لا يدري لماذا، فمنذ أشهر انقطعت رغبته في الأكل والشرب، فكان يعد الطعام لكنه لا يأكل منه شيئا، ويعد الشاي ولا يشرب..

خرج من غرفته. اتجه إلى قاعة الجثث بحذر.. تلفت في ما حوله ليتأكد بأنه وحده في الممر.. دخل مقترباً من جثة الفتاة الممددة على النقالة.. أزاح الغطاء عن وجهها الجميل، وظل واقفاً يتأمله.

راودته حينها مشاعر متضاربة. كان وجه الفتاة يبدو وكأنها نائمة نوماً عميقاً.. ثم ببطء أزاح الغطاء عن كامل جسدها، فرأى جرحا بليغا قي صدرها ناحية القلب، وشيئا من الانتفاخ أسفل بطنها وكأنها حامل، بينما

انزاح ثوبها ملتفا إلى الأعلى كاشفا عن فخذيها الملساوين المتناسقتين.. هو يعرف بأنهم سيعرونها غداً قبل البدء بالتشريح.. ظل للحظات يتأمل جسدها المتناسق الجميل، ثم أعاد الغطاء عليه. غطى الجثة بالكامل..، لكنه حينما هم بالخروج وقف عند باب القاعة فجأة، ثم رجع إليها ليرفع الغطاء عن وجهها فقط، كاشفا إياه لسقف الغرفة.

* * * *

في تلك الليلة شاهد الحارس آدم فيلما أجنبيا اسمه (الآخرون) عن بيت تسكنه عائلة تتألف من أم مع طفليها وخادمتها الخرساء ومدبرة المنزل والبستاني، حيث تكتشف الأم بأن هناك أرواح تسكن المنزل الكبير الذي يقع وسط غابة بعيدة، ويتضح في ما بعد أن الأم وطفليها والخدم جميعهم هم الأموات، وأن الذين كانت تعتقد الأم بأنهم الأرواح التي سكنت البيت ليسوا سوى سكانها الأحياء الذين جاءوا ليستأجروه. لقد أعجبه الفيلم كثيرا، لاسيما وهو يحب الممثلة (نيكول كيدمان) التي تؤدي دور الأم في الفيلم. والغريب أنها ذكرته بوجه الفتاة القتيلة لحد ما. فكر للحظة مع نفسه: هل نحن أموات وهذه هي أرواحنا تعيش، مثل أبطال الفيلم، أم نحن أحياء فعلاً..؟

استلقى الحارس آدم على الصوفة، وأطفأ المصباح الكهربائي فغرقت الغرفة في الظلام. ظل فاتحا عينيه، محدقا إلى سقف الغرفة برغم

الظلمة. فجأة سمع صوتا وكأنه صوت سرير نقال يتحرك. لم يعر الأمر اهتماما فاستغرق في تحديقه لسقف الغرفة عسى أن يأتيه النوم.

مرت لحظات ثم سمع وقع خطوات في الممر تتجه نحو غرفته. أحس بشيء من الخوف. من تراه يمشي في الممر في مثل هذه الساعة..؟. فكر مع نفسه في أن هذا الصوت غير حقيقي، فربما هو يتخيله بتأثير الفيلم الذي شاهده قبل أن ينام. لا. لا. هذه الأصوات حقيقية، بل بدأت تعلو شيئا فشيئا، لكنها تتوقف قليلا، ثم ها هي تستمر بالمشي.. الخطوات تقترب نحو الجهة التي هو فيها.

مع اقتراب الخطوات باتجاه غرفته بدأ الحارس آدم يحس بالبرد يسري في جسده، فالتف بالبطانية. فجأة انتبه إلى أن الأصوات قد توقفت.. إذن هذا يعني أن الخطوات وصلت إلى باب غرفته..شعر بالخوف، وبقشعريرة تهز جسده فغطى رأسه بالبطانية.

بعد لحظات من التوتر رفع البطانية عن وجهه، وأخذ يحدق بمقبض الباب. أحس برغم الظلام الذي يغمر الغرفة بأن مقبض الباب قد تحرك دون أن يطلق صوتا، لكن عاد إلى وضعه الطبيعي. أحس أن هناك من يقف عند الباب ويهم بالدخول لكنه لم يدخل..من تراه.. ؟ ولماذا توقف عند الباب ولم يدخل؟ وإذا كان من العاملين في المشرحة فلماذا لم ينادِه كي يفتح له..؟

بدأت الخطوات تبتعد من عند الباب وتختفي شيئا فشيئا في الممر. فكر الحارس آدم مع نفسه بأن الخطوات جاءت من جهة قاعة الجثث

توقفت عند باب غرفته..لكنها اتجهت مبتعدة نحو الاتجاه ذاته الذي جاءت منه..هذا يعني أنه هو المقصود، لكن لماذا لم ينادِه أحد..؟ ومن تراه كان يمشي في الممر..؟.

في صباح اليوم الثاني سمع طرقا على الباب فعرف أنها أصوات احتكاك مكنسة المنظف الأخرس الذي يقوم بالتنظيف نهارا. انتبه إلى أنه قد تأخر في نومه قليلا، فعادة هو يستيقظ قبل هذا الوقت.

أول ما طرأ على ذهنه هو الذهاب إلى قاعة الجثث، إذ أحس برغبة شديدة في رؤية الفتاة القتيلة التي ربما قد شقوا جسدها الآن. حين خرج من غرفته رأى المنظف الأخرس في أقصى الممر منهمكا بالتنظيف. اتجه إلى قاعة التشريح بخطوات حذرة، فهو يعرف أن الطبيب ومساعده ربما هم الآن في القاعة. في الطريق إلى القاعة تذكر وقع الخطوات التي سمعها ليلاً في الممر. لم يستطع أن يحسم الأمر مع نفسه إن كان ما سمعه مجرد وهم أم كانت أصوات حقيقية.

حينما دلف الحارس آدم إلى قاعة التشريح رأى الطبيب الشرعي ومساعده يقفان عند جثة الفتاة التي كانت عارية بالكامل. كانا قد أنجزا عملية التشريح، وقاما بخياطة الجثة من المناطق التي تم فتحها فيها. كما انتبه إلى أن أسفل بطنها زال عنه الانتفاخ.

ما أن رآه الطبيب الشرعي حتى طلب منه أن يساعد في نقل الجثة إلى السرير النقال، فتقدم دون أن ينطق بشيء وحمل الجثة من جزئها الأعلى بينما رفع مساعد الطبيب الجزء الأسفل ووضعاها على السرير النقال.

لم يستطع آدم أن يمنع نفسه من النظر إلى ذلك الجسد المتناسق الجميل، وإلى المنطقة السفلى من بطنها، وبالتحديد بين فخذيها، بينما سمع الطبيب يقول لمساعده وكأنما يتحدث مع نفسه:

-الله وحده يعلم، كم توسلت هذه الفتاة بأهلها مؤكدة على براءتها ولم يسمعها أحد. على أية حال. تعال معي بسرعة كي ننجز التقرير، ولنخبر أهلها بأن ابنتهم كانت عذراء، وهي بريئة، ولم تكن حاملا. تعال.. تعال معي، ولنترك آدم ينظف الأرضية من الدماء.

خرج الطبيب يتبعه مساعده، بينما بقيَ الحارس آدم مشغولا مع نفسه، تغمره الراحة لخروجهما.

في تلك اللحظة التي اختفى فيها الطبيب ومساعده من القاعة، نظر الحارس آدم إلى وجه الجثة متأملا. اقترب بوجهه منها متأملاً..ظل يحدق في وجهها للحظات. فجأة فتحت الجثة عينيها برعب، نظرت إلى وجه الحارس آدم، ثم أمسكته من ياقة قميصه ساحبة إياه إليها.

شله الرعب ودفع يديها عن ياقة قميصه وهرول هارباً من القاعة، ملتفتا إلى الوراء وهو يركض باتجاه الطابق الأرضي، فرأى الفتاة تقف عند باب قاعة الجثث عارية وهي تبتسم.

كان الحارس آدم يركض بأقصى سرعته، لكنه كان يحس وكأنه يراوح في مكانه. وهو في تلك الحال كان يفكر بما جرى، وما يجري، هل هو يتوهم ما يجري معه أم أن الأمر هو مجرد كابوس لا أكثر؟ وليتأكد من

ذلك كان يتلفت إلى الوراء، لكن لا، الجثة لا تزال واقفةً هناك عند باب القاعة، وآثار خياطة فتح البطن ترسم خطا مشوها على صدرها وبطنها.

عندما وصل إلى الدرج لم يستطع صعوده مباشرة، كان يلهث، وبالكاد يتنفس، ومن شدة ارتباكه تعثر وكاد يسقط، إلا أنه أقعى على الدرج متمسكا بدرجاته.. ثم أخذ يقفز على يديه ورجليه صعودا. عندما وصل إلى الطابق الأرضي رأى أهل الفتاة القتيلة. كانت الأم تنوح وتلطم وجهها، بينما الأخت تزغرد لبراءة أختها من العار الذي لحق بهم، أما الرجل الذي كان ملثما، فقد كشف عن وجهه الآن، وبدا وجهه خاليا من الحزن، بل كان وجهه حيوياً، أقرب ما يكون إلى الارتياح المشوب ببعض الانكسار والندم الخفي في نظراته.

في تلك اللحظة مر المنظف الأخرس وهو يحمل مكنسة التنظيف الكهربائية بالقرب منه. كان قد رأى آدم الحارس وهو يتعثر ويصعد الدرج معتمدا على يديه ورجليه، وقف عنده وسأله من خلال إشارات يديه عما جرى له مستفسراً.. نظر الحارس آدم إليه بذهول وكأنه لم يفهمه..لم يجبه، وإنما حرك يده دونما أي كلام وكأنه يقول له أن لا يسأل.. وأن يمضي لحاله..، لكنه ظل يتلفت إلى أسفل الدرج وكأنه يريد التأكد من أن الجثة لم تتبعه.

بالرغم من مرور أكثر من سنة على هذه الحادثة، فأن الحارس آدم لا يدري، لحد الآن، بالضبط هل ما رآه كان حقيقة أو وهماً..؟ .

(3)

تأملات من قاعة التشريح

ما حدث للحارس آدم مع الفتاة القروية كان بعد شهرين من تعيينه حارساً للمشرحة. لقد مر الآن على وجوده فيها سنة وثلاثة أشهر تقريبا. تعوّد خلال هذا الوقت على رؤية أهالي الميتين في مختلف تجلياتهم للتعبير عن حزنهم.

تعرف على طريقة الأطباء ومساعديهم في التعامل مع جثث الموتى سواء أثناء عملية التشريح أم بعدها، وكيف أن بعض المساعدين يتاجرون بأعضاء الموتى، أحياناً، مستقطعين إياها من الجثث، خاصة أن بعض النساء اللواتي يمارسن السحر يدفعن مبالغ مغرية مقابل ذلك، بل إن المساعدين كانوا يتعاملون مع الجثث بلا أي اعتبار، فهي بالنسبة لهم جثث وحسب، كتل من اللحم، حالها حال جثث الأغنام، يقطعونها بلا أي شعور أو إحساس خاص بالتعاطف الإنساني، بل أحيانا كانوا يدفعونها ويقطعونها بنوع من القسوة مثل أي قصاب في السوق، فإذا ما لاقى صعوبة في تشريح جزء أو فتح عضلة فأنه يأخذ الساطور أو الفأس ليهوي على ذلك الجزء مهشما إياه أو مقطعا أو هارسا له.

في المرة الأولى التي رأى فيه عملية التشريح شعر برعب حقيقي، وبغثيان، ومنذ ذلك الوقت قرر أن لا يأكل اللحم. إن نظرته للحياة وللبشر، وفهمه وتقويمه لها، تأثر جداً بمشاهداته للجثث يوميا، ورؤيته لعملية تشريح الأجساد البشرية، لاسيما لجثث بعض الشخصيات التي كانت تظهر على شاشات التلفزيون أو على صفحات المجلات والصحف، وتحتل في الحياة مواقع سياسية أو ومناصب حكومية، ثم يراها ملقاة على السرير النقال لا حول لها ولا قوة، بل هي مجرد كتلة من اللحم.

لقد تلبسته تلك اللحظات الفارقة التي يكون الإنسان فيها في المنطقة القريبة من الحياة والتي تبدأ برحلة الموت..فمن كثرة رؤيته للجثث ولعمليات التشريح، صار إذا رأى شخصا، أيا كان ذلك الشخص، فأنه يراه بعين خياله عاريا على السرير النقال، أو أنه على مصطبة التشريح، أو أنهم قد فتحوا بطنه، أو أن الطبيب ومساعده يفتحون جمجمته بالماكينة الكهربائية التي تستخدم لقص الحديد أو الخشب ذات القرص المسنن، بعد أن يكون مساعد الطبيب قد رسم خطا على الجبين يحدد فيه حدود تمرير السكين الحاد لقص جلدة الرأس أولاً، ثم لنزع جلدة الرأس بكل شعر الرأس الموجود، لتبرز الجمجمة بدون أيما جلد عليها، ثم يتم استخدام المنقاش الحديدي لفتح الجمجمة فيبرز الدماغ.

ما أكثر المرات التي شاهد فيها مساعد الطبيب وهو يكسر القفص الصدري بالساطور ليستخرج القلب والرئتين وبقية موجودات الصدر، وكيف تشق البطون ويستخرج منها كل الأحشاء الموجود هناك. وما أكثر

المرات التي تفجرت أمعاء الجثث بالغائط، لاسيما حينما تكون الجثة منتفخة، ويشقها المساعد بسكينه فيمررها على أحشائه الداخلية..فتنبعث الروائح الكريهة التي لا تُحتمل.

دمرت هذه المهنة حياة آدم. ليس بالمعنى المادي، فهي على العكس ضمنت له راتبا شهريا ومأوى جيداً. لكن حياته دُمرت من جانب آخر، إذ لم يعد يرى في الناس سوى كتل لحم بشعة، وجيف تمشي، وأحشاء مليئة بالبراز والفضلات النتنة.

صار ما أن ينظر لرجل سمين، حتى تبرز في خياله طبقات الدهن المتراكمة، التي على مساعد الطبيب أن يسلخها مع الجلد عند فتح الجثة، وكذا الأمر حينما يرى رجلا نحيلا فأنه يفكر في سهولة شق بطنه وفتح القفص الصدري. كما يرى الأحشاء والأنسجة اللزجة التي تغطي البطن والصدر عند النساء، وكيف يتحول النهد الذي يتغنى به الشعراء ويثير شهوات الرجال إلى كتلة بشعة من مادة طرية لزجة، وكيف ينكمش النهد عند فتح الصدر ويذبل وكأنه قشرة تين مهروس.

لقد أخمدت مشاهداته لعمليات التشريح رغبته الجنسية الحقيقية بمضاجعة النساء، فصار يكتفي بالاستمناء، بل صار يفلسف الاستمناء، ويعتبره أفضل حل لتلبية الرغبة الجنسية، فهو يحقق لصاحبه أجمل التخيلات مع أجمل النساء، ويتصرف معهن بمختلف الأوضاع و أجملها وأشدها إثارة للشبق، دون أن يضطر للتعامل بشكل واقعي مع أجساد هو يعرف أنه لا يستطيع أن يرى فيها غير جثث باردة مفتوحة الصدر بطريقة

كريهة، ومهشمة الصدر، مع وجوه منزوعة الجلد حيث لم يبق سوى الجمجمة. الاستمناء هو وسيلة الاكتفاء الذاتي، وأحد الحلول للخلاص من جحيم الآخر. هكذا كان يفلسف الأمر لنفسه.. وهذا ما كان يفعله يوميا وهو يشاهد الأفلام الجنسية.

صار الحارس آدم يهزأ مع نفسه من أغاني الحب، ومن الأشعار العاطفية، ومن تلك البكائيات المضحكة التي تؤكد على هموم القلب وعمق المحبة فيه، بينما الذي يراه يوميا تقريبا، يسحق كل جمال الجسد البشري، الذي لا يعدو في المشرحة سوى قطعة من اللحم المغطى في معظم الأحيان بطبقات من الشحم، والذي يشقه الطبيب فلا يخرج منه سوى بعض الدم الأسود والروائح الكريهة.

لقد قضت هذه المهنة اللعينة على أحلامه، ورومانسيته وشاعريته. لم يعد يفكر في الحب على الطريقة الشرقية. حب الآهات والدموع. ولم يعد يفكر في الزواج وتكوين عائلة، ولم يعد يفكر في المجتمع البشري وآلامه الاجتماعية. صار يؤمن أن الموت هو الحقيقية الوحيدة التي لا يريد البشر النظر إليها، وأن الإنسان هو أبشع المخلوقات على هذه الأرض.

صار يؤمن بالروحانيات بشكل واضح، فالإنسان ليس سوى جيفة تتحرك، لكن اللغز في نسمة الحياة، أو كما تسمى: الروح..لكنه كثيراً ما كان يسأل نفسه عن سر الروح.

صار يفكر في الروح. تأكد من أن السمة الحقيقية في الإنسان هي روحه. حين تغادر الروح لا يبقى من الإنسان سوى هذا الجسد البشع من الداخل..لكن ما هي الروح..؟ أقلقه هذا السؤال كثيرا.

وكثيرا ما كان يفكر في الأطباء ومساعديهم. هل هؤلاء بشر ويمتلكون أحاسيس وعواطف حقاً..؟. كيف يذهبون إلى بيوتهم ويجلسون على مائدة الطعام..؟ بل كيف يأكلون اللحوم..؟ علما أن الذي أثار استغرابه أن هؤلاء الأطباء ومساعديهم يحبون أكل اللحوم أكثر من غيرهم، فكثيرا ما كانوا يرسلون الساعي لشراء الكباب أو الرز مع قطع اللحم المشوي أو المسلوق من المطعم القريب من المشرحة.

ذات مرة استيقظ مبكراً جداً. لا إرادياً ذهب إلى قاعة الجثث، لكن أحس بصدمة قوية حينما لمح مساعد الطبيب يحضن إحدى جثث النساء رافعا رجليها إلى الأعلى دافعا بقضيبه في فرج المرأة الميتة التي حملوها عصرا إلى المشرحة.. كان يضغط بنفسه عليها بشبق ولهفة.. فكر في دناءة هذا الرجل، لاسيما وهو متزوج ولديه أطفال؟ ما هي الرغبة التي يمكن أن توقظها في نفسه جثة باردة، يابسة، ومتخشبة؟ جثة تفوح منها رائحة الموت الغريبة؟.

ظل واقفا يتأمل المشهد أمامه. انتبه، بعد لحظات، إلى إن المرأة كانت جميلة حقا، ويبدو أنها في حياتها كانت فاتنة حقاً، فجسدها برغم الموت مثير جداً.. فكر آدم مع نفسه قائلاً: لكنها الآن جثة هامدة، باردة،

فاقدة للإثارة برغم عريها الفاضح؟ .. اقترب آدم من باب القاعة ووقف عند المدخل دون أن يثير انتباه المساعد المنهمك برغبته، فوصلت إليه رائحة مساعد الطبيب التي كانت كريهة جداً وغفنه، ربما أكثر عفونة ونتانة من رائحة جثة المرأة العارية.

مرت بالحارس آدم فترة أخذ يهتم خلالها بقراءة الكتب الدينية، والكتب التي تتحدث عن الأرواح وما بعد الموت، و كتب التراث الإسلامي عن عذاب القبر وأهواله، عن الملاكين منكر ونكير، لكنه ترك قراءة هذه الكتب لأنه وجد فيها الكثير من الأوهام والترهات. ما من أحد يعرف سر الموت، ولا أحد يعرف لغز الحياة.هكذا كان يعتقد بقوة، بل إنه أحيانا كان يشارك الماديين حججهم في أن الحديث عمّا بعد الموت هو أوهام وخيالات الأحياء نتيجة خوفهم من الموت، فما من أحد عاد من الموت ليخبرنا عن سره. نعم..الموت تجربة لم يخضها أحد..لأن الموت ليس تجربة، وإنما عبور إلى العدم..أو الغامض المجهول..هكذا كان يفكر مع نفسه.

أحيانا كان يفكر بهؤلاء الفلاسفة الإسلاميين الذين يحترم تفكيرهم الفلسفي وتأملاتهم العميقة في بعض نصوصهم، ويسأل نفسه: كيف دونوا، إلى جانب كتبهم ونصوصهم الفلسفية العميقة، تلك الترهات عما يجري في القبر، حينما يتحدثون عن الحساب في القبر وأهواله..؟ ثم يسأل نفسه: ماذا عن مئات الملايين من الهنود الذين تم حرقهم وألقي برمادهم في الأنهار المقدسة؟ كيف وأين سيحاسبهم الملاكان منكر

ونكير..؟. وماذا عن المسيحيين الذين يؤمنون بأن السيد المسيح هو مخلصهم وهو الذي تحمّل ذنوب البشر كلها..وأنه بآلامه قد اشترى خلاصهم..؟

كان يجلس لفترات طويلة مفكرا في البشر، وكيف هم يسمون هذا الكوكب بكوكب الأرض، بينما الأرض لا تشكل سوى ربعه؟ فالبحار والمحيطات هي التي تحتله، أي أنه كوكب الماء.

كان يفكر في هذه الأرض التي هي أصغر من حبة رمل صغيرة في هذا الكون المترامي الأنحاء، الذي يزدحم بعشرات المجرات الهائلة ومليارات المليارات من الكواكب والنجوم.. أحقا أن هذا الكون كله خلق من أجل الإنسان كما تدعي الأديان..؟ أمن أجل هذه الكتلة من السوائل الكريهة والبول والبراز والفضلات النتنة خُلقت مليارات المجرات والكواكب والنجوم والشموس..؟ أمن أجل هذه الكتلة من الغرائز والرغبات خُلقت كواكب وشموس أكبر من الأرض بمئات المرات.. ومجرات تبدو الأرض بينها كحبة رمل..؟ أيُعقل هذا..أم هناك الكثير من العوالم التي لا نعرفها والأسرار التي أعمق وأكبر من أن نفكر فيها.. ؟

ثم.. لِمَ يعتقد الإنسان أنه سيد الأرض؟ بينما عدد الأشجار على سطحها يفوق عدد البشر مئات المرات..؟ ويا تُرى أيهما أجمل وجودا، الأشجار أم الإنسان..؟ الأزهار أم الإنسان..؟ أين هي يا ترى تلك الأفكار العظيمة والتأملات الفلسفية الهائلة حول الإنسان والحياة والمصير البشري..؟ أين صارت شطحات الصوفيين..؟ وأين هو عالم النور الذي

غنى له الشعراء والمصلحون ..؟ أين الأفكار العظيمة التي عذبت المفكرين، وقتلوا، وصلبوا، وأعدموا، من أجلها..؟ هل جثث الفلاسفة والمفكرين..والعظماء من العلماء والمخترعين..والفنانين..تختلف عن جثث عامة الناس..؟ أين هي الحقيقة يا تُرى..؟ وما هو سر الجمال..؟ أين هو الخلاص..؟

وبالرغم من أن الحارس آدم يعمل في المشرحة منذ حوالي سنة وثلاثة أشهر، إلا أن هذه الأفكار والتحولات النفسية والفكرية التي تعرض لها وعاشها، ويعيشها يومياً، كانت نتيجة تعامله المستمر مع الجثث البشرية في أبشع صورها.

كان آدم يفكر في البشر الأحياء من خلال حقيقة موتهم، ونهاية دورهم في الحياة اليومية التي تضج خارج المشرحة، كانت الحياة هنا داخل المشرحة هي الحياة بالنسبة له..ومنها كان يستمد تأملاته الفكرية، لذا ارتعب حينما شاهد الفيلم عن ذبح الشاب آدم المهدي في حوض الحمام في بيت أحد الأعضاء المهمين في الدولة.

كان الحارس آدم مؤمنا بأن ثمة حاجزاً خفياً بين الحياة والموت، ولم يكن هذا مجرد فكر يؤمن به، وإنما هو شعور صار يلازمه، بل تعود عليه أن تمر به لحظات يجد نفسه يشعر مثل الأطباء ومساعديهم، ذلك الشعور الذي يتلخص في أن الجثة ليست بشرا، ولا يمكن التعامل معها على هذا الأساس. هي جسد ميت بلا روح. كتلة من اللحم والعظام

المغطاة بالجلد. ذبيحة يمكن التعامل معها بلا أية شعور بالذنب أو الإحساس بالتعاطف. لكنه سرعان ما كان يقاوم هذا الشعور..لأنه يعذبه.. فهو لم يكن يستطيع أن لا يقرن الجثة بشخصية صاحبها، أو لا يفكر فيها بأنها كانت تنبض بالحياة، وكانت لها مشاعرها وأحلامها وأحقادها وتأملاتها الفكرية والعقائدية، مثلما يتأمل هو الآن.. هذا الإحساس كان يعذبه ويتركه في حالة تناقض وصراع نفسي مستمر.

(4)

يـوم عـراقـي عـادي جـداً

استيقظ الحارس آدم على صوت ضجيج يجتاح الطابق السفلي من المشرحة، حيث تقع قاعة الجثث المعدة للتشريح، وسمع أصواتاً وجلبةً على غير العادة في الأيام الأخرى. نظر إلى الساعة المنضدية فرأى أنها لم تتجاوز الثامنة والنصف صباحا. فتح باب غرفته ليعرف ما يجري، فوجد مساعد الطبيب يدفع بالسرير المتنقل مسرعا، وما أن رآه الآخر حتى صاح فيه أن يسرع إلى الباب الخارجي ليأتي ببقية الجثث، فقد حدث انفجار في موقع لتجمع الناس صباحا، وقد سقط العديد من الضحايا الذين تم توزيعهم على المستشفيات، بينما حملوا إليهم خمس جثث لنساء كن قريبات من موقع الانفجار.

كان ممر الطابق تحت الأرضي مزدحما برجال الحرس الوطني، وبعض سائقي سيارات الإسعاف التابعين لإحدى المستشفيات، وإدارة المشرحة مع الأطباء ومساعديهم.

ركض الحارس آدم مسرعا إلى الأعلى فرأى بعض العاملين وهم يدفعون عربتين عليهما جثتان وهم يتراكضون ناحية المصعد الذي عليهم إنزال الجثث إلى قاعة التشريح من خلاله.

حين وصل الحارس آدم إلى الشارع توجه مباشرة إلى سيارات الإسعاف الثلاث التي كانت تقف أمام المشرحة فلم يجد فيها أية جثة. وبالرغم من أن حمل الجثث إلى الداخل ليس من مهامه، لكن بحكم استقراره المعيشي في المستشفى فأن دوامه الرسمي صار غير محدد، وصار يُكلف بمهام أخرى كنقل الجثث أو إحضارها من قاعة الثلاجات أو حتى مساعدتهم عند التشريح خلال الدوام الرسمي الصباحي.

نزل الحارس آدم إلى الطابق السفلي حيث قاعة الجثث فالتقى في الممر برجال الحرس الوطني وهم يتوجهون إلى الخارج ومعهم مدير المشرحة وبعض الأطباء والمسؤول الإداري وبعض الرجال الذين لم يعرف من هم. لم يعرهم اهتماماً بل استمر في طريقه متجها إلى قاعة الجثث.

كان في الممر ثلاث عربات لنقل الجثث التي تم صفها على امتداد واحد. كانت بعض العربات قد تلطخت بالدم الذي تدفق من الجثث.

حين دخل الحارس آدم القاعة وجد أن ثلاث جثث ما زالت على الأسرة المتنقلة التي حملت عليها أصلا من سيارات الإسعاف، وجثتين ممدتان على السرير المعد من الصفيح والمسند على مصطبة من المرمر. كانت الجثث جميعها لنساء من مختلف الأعمار والشرائح.

على السرير النقال القريب من باب القاعة كانت جثة فتاة في بدايات العشرين من عمرها. تلبس بنطلونا من الجينز وسترة ملونة بالأحمر والأبيض مع تقاطعات لخطوط عريضة رمادية وسود، وتحت السترة كان يبدو قميصها الأحمر. بدت وكأنها نائمة نوما عميقا. كانت في كامل زينتها. تأمل وجهها جيداً فراوده إحساس بأن هذا الوجه ليس بغريب عليه، حاول التذكر لكنه لم يستطع أن يتذكر أين رأى هذا الوجه.

تفحص الجثة باحثا عن الإصابة التي سببت الموت فلم يجد أي أثر للدم أو لأي جرح واضح. انتبه إلى أن إحدى القدمين كانت في الحذاء بينما القدم الأخرى حافية.

على السرير النقال الآخر الذي وضع قرب النافذة المطلة على الممر، قرب الباب أيضا، كانت جثة أخرى مسجاة. جثة لامرأة محجبة. امرأة شابة في غاية الجمال. وجه بملامح حادة، صارمة ودقيقة، ذكرته بوجوه تأملها في بعض اللوحات العالمية. الرأس كان مغطى بحجاب من الحرير الذي رسمت عليه نقوش جميلة، حجاب يمتد حتى كتفيها، بينما جسدها يختفي تحت ثوب طويل أشبه بطيلسان طويل يغطيه من الرقبة حتى القدمين.

أعجبه وجهها البريء الجميل بشكل اشتثنائي، وأناقتها المتميزة قياسا للنساء المحجبات. كانت تبدو أيضا وكأنها نائمة. فتش بفضول واضح عن إصابتها، فلم يكتشف شيئا هذه المرة أيضا. دهش مع نفسه من

هذا الانفجار الذي لم يجرح أحدا، والذي ترك ضحاياه وكأنهم يغطون في نوم عميق.

في وسط القاعة كانت جثة ضئيلة ملفوفة بعباءة سوداء. اقترب منها فرأى امرأة عجوزاً في حدود السبعين من العمر. كانت عيناها مغلقتين وعلى وجهها أثر ابتسامة مرة وساخرة. سأل نفسه: هل هي تسخر من الموت أو من الحياة..؟.

فتش عن إصابتها التي سببت موتها. لم يجد شيئا. فكر مع نفسه بأنه ربما لا يرى ذلك لأنها ملفوفة بالعباءة. لكنه انتبه إلى أن العباءة قد تلطخت بالدم عند منطقة الصدر، كما انتبه إلى أن جثة العجوز ليست هي وحدها التي تشغل السرير المتنقل، وإنما في الجانب الآخر جثة لصبي صغير، بدا ربما في السابعة من عمره، بملابس المدرسة، ولم يبد على الصبي أي جرح قط، سأل نفسه عن سبب وضع الصبي معها، وأجاب نفسه بسرعة بأن العجوز تبدو صغيرة الحجم، وضئيلة الجسد، لذلك فأنهم وضعوا جثة الصبي معها على السرير نفسه.

على السرير النقال الذي يقع إلى يسار القاعة وضعت جثة لامرأة قصيرة القامة، أنيقة الملابس، بينما وجه الجثة يكشف عن خوف وألم وكأنها كانت تعي موتها في تلك اللحظات التي واجهته فيها. انتبه لبقعة دم وثقب في جانب الرأس. خمن مع نفسه ربما ماتت من أثر شظية جاءتها في الرأس.

في أعماق القاعة كانت جثة أخرى لامرأة شابة جميلة الملامح، تميل إلى البدانة قليلاً، لكنها كانت مذبوحة العنق.. فثمة شق يمتد على طول عنقها دون أن يقطع الرأس.. كيف ذلك؟ سأل الحارس آدم نفسه، إذ كانت تبدو وكأن عنقها قد قطعته سكين أو آلة حادة، وأن لا علاقة لها بالانفجار. كانت المرأة في ملابس رسمية اعتيادية وكأنها كانت ذاهبة إلى دائرتها.

سأل الحارس آدم نفسه: لماذا جميع الجثث من النساء وليس بينها أي رجل سوى جثة لصبي صغير في الثامنة؟.

غادر الحارس آدم قاعة التشريح إلى الممر الذي كان خاليا من أي شخص. راوده إحساس بأن هذا الممر يقع في مكان مجهول.. خارج حدود الزمان والمكان.. خطا نحو غرفته التي تقع على مبعدة من الدرج في الجهة المقابلة لقاعة التشريح وقاعة الثلاجات.

فتح باب الغرفة، وفي تلك اللحظة بالذات توقف..ثم بشكل مفاجئ أغلقه واتجه إلى الطابق الأعلى، إذ راوده فضول أن يعرف شيئا عن الانفجار وعن أصحاب الجثث التي تتمدد في قاعة التشريح. فكر وهو في طريقه بأن المشهد ربما سيتكرر حينما يحملون جثثا كثيرة بعد أي انفجار. قلق عام، وجوه كثيرة، غريبة، مريبة، كل منها يضفي على نفسه أهمية ما لعلاقته بشكل ما بأحد الضحايا أو المسؤولين الحكوميين ترافق ذلك حركة فوضوية حامية من قبل العاملين في المشرحة. سيرى أيضاً بعض

المواطنين الذين يبحثون في أسماء الضحايا التي تسعى إدارة المستشفى لإعدادها بالسرعة التي تستطيع.

وصل آدم إلى الطابق الأرضي فتأكد مما توقعه.. هنا ازدحام عند المدخل والاستعلامات. حركة موظفي المشرحة الواضحة التي تبين انشغالهم بالحدث.. عدد ليس بالقليل من مراتب الحرس الوطني يحاولون أن يجسدوا هيمنتهم الضائعة في الشارع على الوضع داخل المشرحة.. رجال في ملابس مدنية، مضفين على أنفسهم أهمية استثنائية، يحاولون مع إدارة المستشفى معرفة هويات الضحايا من خلال تفتيش بعض الحقائب التي وجدت هناك والتي تعود للضحايا بلا شك.

بعض الضحايا قد تم التعرف عليها، لأنه سمع بعضهم يتداول أسماء اثنتين منهما، وعرف أن هذه الأسماء التي يتم تداولها بينهم تعود لضحيتين معروفتين لمعظمهم، لكنه لم يعرف من يقصدون منهن، حيث يبدو أن عائلات الضحايا لم تعرف بعد بما حدث.

ظل طوال اليوم يتحرك بين القاعة وبين الطابق الأرضي. وبالرغم من أن الدوام قد انتهى إلا أن الأطباء وإدارة المستشفى بقوا في المشرحة، لاسيما وأن بعض وسائل الإعلام والصحافيين قد وصلوا إلى المشرحة. يبدو أن بين الضحايا شخصية نسائية معروفة، أو زوجة أو قريبة، أو ابنة لشخصية معروفة ومهمة. انتبه لذلك من خلال اصرار بعض وسائل الإعلام على تصوير جثث ضحايا الانفجار..وخصوصا واحدة منهن..إلا أن إدارة المشرحة رفضت ذلك.

الصحافيون لا يأتون إلى المشرحة ولا يزورونها إلا نادراً، إلا حينما تكون الضحية من الشخصيات التي كانت مهمة أو تقرب لشخصية مهمة. بعض الصحافيين حاول التسلل إلى الطابق السفلي وتصوير الجثث إلا أن إدارة المشرحة قد منعت ذلك بشكل تام، وقد كان هو في الطابق السفلي يتصدى لكل من يريد التسلل إلى القاعة حيث الجثث. بعضهم حاول بشتى الطرق، بل وعرض عليه شيئا من المال مقابل السماح له بالتصوير، لكنه رفض بشدة. ظل بعض المصورين يحومون حول المشرحة حتى أول الليل، لكنهم مع حلول الظلام انسحبوا جميعا بما فيهم إدارة المشرحة وكل العاملين فيها، ولم يبق إلا الكادر الخفر. أحس الحارس آدم بالراحة من ذهاب الجميع، حيث لم يبق في المشرحة إلا الطبيب الخفير ومساعده، وهو..فكر مع نفسه بأن الجثث ستكون بأمان، فلا أحد سينزل إلى الطابق الأسفل ليتسلل إلى قاعة التشريح.

الليل في بغداد مرعب. شوارع مقفرة وزوايا معتمة يطن فيها الصمت. لا كهرباء ولا أضواء، ولا دبيب حياة، إلا في بعض المناطق التي يسكن فيها بعض السياسيين وقادة الأحزاب، والتي تضم بعض المطاعم، وبعض المحلات التجارية، والتي تعج بجيش كامل من أعوانهم ومن رجال الحرس الوطني.. العتمة هي التي تلون الحياة والموت في بغداد.

حين ينتهي الدوام الرسمي عصرا تقفر المشرحة، وتتحول إلى موضع خارج الزمان والمكان، خارج التاريخ. يختفي الكون كله ويغرق

في الظلام. الحياة تنتقل من أزقة بغداد إلى المشرحة، فهنا في هذه المشرحة تتجلى كل صور الحياة والموت التي تعكس عالم هذه المدينة المظلمة.

وبالرغم من أن المشرحة تكون شبه خالية من الموظفين والأطباء في الليل، سوى الطبيب الخفر ومساعده، إلا أن الطابق الأعلى يضج دائما بأصوات غريبة، وبحركة سرية، لكنها واضحة ومسموعة أيضا، وتستمر الأصوات والحركة إلى الساعات الأولى بعد منتصف الليل. وعلى الرغم من أن الحارس آدم سعى إلى معرفة مصدر هذه الأصوات والحركة، حيث لم يكن أمامه سوى أن يسأل مساعد الطبيب الخفر، إلا أن هذا المساعد لم يساعده في إعطاء الإجابة وإنما زاده غموضا، حينما حذره من أن يسأل غيره عن سر هذه الضجة في الطابق الأعلى، وإلا فأنه سيحجز في مكان لا مخرج له منه.

زادت حيرة الحارس آدم، فهذا الغموض الذي تضمنته كلمات مساعد الطبيب وأثارت فضوله أكثر لمعرفة ما يجري في الطابق الأعلى. كان يتحين الفرص للصعود إلى هناك، لكن لم تواته أية فرصة حقيقية لإرواء فضوله. دائما يجد مساعد الطبيب متربصا له، وكأنه يعرف نواياه وفضوله الغريب، ففي أي وقت من الليل يصعد إلى الطابق الأرضي ناويا الصعود إلى الطابق الأعلى يظهر له مساعد الطبيب في الممر، أو عند الاستعلامات أو نازلا من الطابق الأعلى، أو خارجا من باب إحدى غرف الموظفين المغلقة، ليسأله عما يريد..ولماذا هو يريد الصعود.. فيخبره بأنه نسي أن يفتش الغرف إن كانت مغلقة بالمفتاح أم لا؟ .. فتأتي إجابة

المساعد كالعادة بأن واجبه هو أن يقوم بحركة التفتيش الليلة قبل منتصف الليل، وليس من حقه أن يقوم بذلك بعد منتصف الليل، وفعلا، فأن الحارس آدم منذ عمله حارساً في المشرحة يقوم بالتفتيش في المشرحة ليلاً، ودائما قبل منتصف الليل، ولم يحدث أن قام بذلك لبعد هذا الوقت، غير أن الأصوات التي يسمعها والحركة الواضحة التي يشعر بها تحدث بعد منتصف الليل قد أثارت فضوله الذي لا يعرف الهدوء، وهو يصر في أعماقه على معرفة سرها بالرغم من أنها تحدث بعد أن يقوم بجولته الليلية.

دخل الحارس آدم إلى غرفته في الطابق تحت الأرضي. جلس على الصوفة الجلدية، انتبه إلى أن الوقت هو العاشرة ليلاً. فكر أن بغداد غارقة الآن في الظلام، الخوف والغدر والموت يتربصان في كل زاوية ومنعطف وزقاق فيها. لم يكن يعرف ماذا يفعل، هل يبدأ بجولته الليلية في المشرحة الآن، أم ينتظر قرب حلول منتصف الليل بقليل..؟

أجال النظر في غرفته. الكتب التي اشتراها من شارع المتنبي تتراكم فوق بعضها على طاولة في الجانب الآخر من الغرفة الصغيرة، وعند رأسه مجموعة من الكتب وأقراص الأفلام (دي في دي). لا يعرف لـِمَ، وكيف، تذكر أبيات شعر مترجمة لشاعر انكليزي، فرددها مع نفسه :

قد سمعت صوت المفتاح

يدور في الباب مرة، ولا يدور إلا مرة

نحن نفكر في المفتاح، كل في سجنه

يفكر في المفتاح، كل منا لا يتثبت

من سجنه إلا عند حلول الليل...

انتبه إلى تطابق هذه الأبيات مع حياته..نعم أن حياته الحقيقية تبدأ في الليل أيضا، وفي الليل يتحقق من عالم الأسرار أيضا، فكل ما يدور في النهار داخل المشرحة من حركة للمراجعين، ونقل للجثث، وتشريح لها، لا يكاد يكون هو العالم الحقيقي والواقعي بالنسبة له، وإنما في الليل، حينما تخلو المشرحة من دبيب الناس وحركتهم، وحينما يشاهد الأفلام في غرفته، وبالتحديد بعد منتصف الليل، حيث تبدأ الحركة الحقيقية في الطابق الأعلى، إذن، عليه أن يتثبت من سجنه كما تقول القصيدة.. لكن كيف..؟ هل هو معزول وسجين في المشرحة أو حارسها، هل هو حارس المشرحة أو حارس الجثث التي ترقد فيها؟.

ظل جالسا على الصوفة الجلدية، مستعيداً كل التفاصيل التي يراها أثناء جولته التفتيشية كل ليلة..سأل نفسه إن كان قد رأى أي شيء يثير التساؤل حينما يقوم بالتفتيش..؟ لم يجد ما يؤكد له هذا الشك. سوى الأصوات والضجيج الذي يصله من الطابق الأعلى، والذي يبدأ بعد منتصف الليل.. والذي أكده مساعد الطبيب بتحذيره عدم السؤال عن ذلك.. لذا قرر أن يتأخر في جولته هذه الليلة إلى وقت يسبق منتصف الليل بقليل، بحيث يكون قد دخل فترة ما بعد منتصف الليل وهو في جولته

التفتيشية ليكون ذلك مبررا له لمعرفة سر الضجيج.. ولكي يقضي الوقت المتبقي في غرفته، ضغط على الريموت كونترول فبدأ التلفزيون يبث برنامجا حواريا سياسيا، أكد فيه المتحاورون على الأمان الذي تحقق في البلاد بفضل السياسة الحكيمة للمسؤولين.. ضغط متنقلاً بين المحطات التلفزيونية التي كان معظمها يبث برامج حوارات سياسية لا يختلف المتحدثون فيها في الجوهر عن بعضهم البعض، وهو بطبعه يكره السياسة والسياسيين، لاسيما وهم يتحدثون بطريقة تكاد تكون فاترة..، بل انتبه إلى أن بعض من يُطلق عليهم اسم المحللين السياسيين يظهرون في أكثر من قناة في الوقت نفسه، كما انتبه إلى أن من يشاهدهم على شاشة التلفزيون، بمن فيهم المسؤولين عن مصير البلاد، يبدون وكأنهم يضعون أقنعة على وجوههم، لأنهم يشبهون الموتى بعد التشريح وخياطة الجسد. لاسيما في منطقة الصدر وأعلى الجبين عند حدود فروة الرأس..أترى هم موتى..؟

فكر الحارس آدم مع نفسه وسألها: لماذا أعمل في المشرحة، أليس هناك وظائف أخرى يمكنني أن أعمل فيها..؟ حتى أمي الوحيدة صرت لا أراها، لقد مضى عليّ أكثر من ستة أشهر لم أقم بزيارتها، لماذا..؟ هو نفسه لا يجد تفسيراً واضحاً لعدم زيارته لأمه..بل إنه يحس بأن ثمة تغييراً طرأ عليه منذ ستة أشهر تقريباً..لكن ما هو..؟ كيف..؟ ولماذا..؟. لم يجد جواباً على أسئلته الغامضة.

انتبه إلى الوقت الذي يمضي بسرعة، فها هي الساعة قد قاربت الحادية عشرة، إذن عليه أن ينتظر ساعة أخرى ثم يقوم بجولته الليلية.

فجأة، سمع طرقاً على باب غرفته. نظر من البؤبؤ الزجاجي الذي يتوسط الباب، فرأى مساعد الطبيب ينظر إلى العين الزجاجية للباب من الجهة الثانية من الباب، توقف للحظة سائلا نفسه عن سبب مجيئه، ولم يكن أمامه سوى أن يفتح له.

كان مساعد الطبيب واقفا. ظل للحظات يتأمل وجه الحارس آدم وكأنه يحاول أن يستكشف من ملامحه شيئا خفيا، ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى، وسأل:

- ما الذي جرى يا آدم..؟
- ماذا..؟ أجاب مستغربا
- لماذا لم تقم بجولتك الليلية لحد الآن؟
- سأقوم بها فيما بعد..
- لا.. يجب أن تقوم بها الآن، لأن الطبيب الخفر يريد أن ينام، ولا يريد أي إزعاج، ولا يسمح لأي شخص أن يصعد إلى الطابق الأعلى حيث ينام، خاصة بعد منتصف الليل.. وأنا نبهتك إلى ذلك..وحذرتك من القيام به..فإذا أردت أن تقوم بجولتك الروتينية فعليك أن تقوم بها الآن، وليس فيما بعد.. وإلا عليك إلغاؤها الليلة.
- لكنني سأقوم بها حالاً.

- هذا أفضل لك، أن تقوم بها الآن..قبل منتصف الليل، لأني انتبهت أنك تأخرت هذه الليلة..، فقلت ربما أنت مندمج مع أحد أفلامك ولم تنتبه للوقت.
- صحيح.. سأقوم بها حالاً..
- إذن.. إلى الغد.. لأني سأذهب للنوم.. فلقد كان يوماً مرهقاً.. لا تتأخر..

قال المساعد ذلك وذهب، بينما ظل الحارس آدم واقفاً للحظات، أغلق الباب. جلس على الصوفة الجلدية. ضغط على الريموت كونترول موقفاً البث التلفزيوني. لم يكن مقتنعا بكلام المساعد في أن الطبيب الخفر يريد النوم، ولا يسمح بالتفتيش بعد منتصف الليل، بل هناك سر ما وراء عدم السماح له بالبقاء في أروقة المشرحة وفي الطابق الأعلى بعد منتصف الليل، وعليه أن يكشف هذا السر.

صحيح أنه وعد المساعد بأنه سيذهب حالا في جولته الاعتيادية، إلا أنه قرر مع نفسه بأن يصعد إلى الطابق الأعلى بعد منتصف الليل ليكشف سر الضجة الليلية. فجأة، اهتزت الغرفة، والمشرحة كلها، من صوت هادر هائل مرعب. لم يدرك الحارس آدم خلال الثواني الأولى بأن سقف السماء قد انشق عن رعد وبرق مهول، وهطلت الأمطار بشكل مفاجئ وسريع ومدرار، على غير توقع من مرصد الأنواء الجوية الذي يعلن تقديراته يوميا من خلال شاشة التلفزيون.

سمع صوت المطر العنيف، والغاضب، يسقط على الأسفلت خارج المشرحة من خلال الشباك الصغير الذي يطل من جزئه العلوي على أرضية الشارع الخارجي، من الجهة الخلفية للمشرحة.

أحس بقشعريرة تسري في نفسه. سأل نفسه إن كان سيقدم الليلة على مغامرته بزيارة الطابق الأعلى..؟ لكن هذا التساؤل كان متأخرا بالنسبة إليه، فقد كان إصراره على أن يقوم بذلك قد حسم أي تساؤل متأخر.

نهض من مكانه بهدوء وبتكاسل متعمد لتمضية الوقت. فتح باب الغرفة خارجا وهو يقبض بيده على رزمة من المفاتيح. كان تفكيره متمركزا على الصعود إلى الطابق الأعلى مهما كانت الظروف. حين صار في الممر وقف مفكرا مع نفسه، هل يبدأ بقاعة التشريح وقاعة الثلاجات، ثم يعود ليصعد إلى الطابق الأرضي ثم الطابق الأعلى، أو العكس..؟ قرر أن يصعد إلى الطابق الأرضي لينتهي منه، منتظرا الأصوات والحركة في الطابق الأعلى بعد منتصف الليل، عندها يصعد إلى الطابق الأعلى ليستكشف الأمر.

صعد الدرج إلى الطابق الأرضي على مهل وبهدوء. حين صار في الطابق الأرضي ألقى نظرة على الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف. إذن، عليه الانتظار لمدة نصف ساعة أخرى.

من عادته في جولته التفتيشية أن يذهب يتأكد من البوابة الخارجية المرتبطة بسور المشرحة الخارجي الذي يمتد من جهة الشارع العام فقط، ثم الباب الخارجي الذي يشكل مدخلا للمشرحة والذي ينفتح على الباحة

ومكتب الاستعلامات، ثم يتجول في الممرات ليتأكد من الأبواب. لكنه الليلة حينما توجه إلى الباب الرئيس كي يذهب إلى البوابة الخارجية، انتبه إلى أن المطر في الخارج لا يزال يهطل بشدة، وصوت البرق والرعد يهز المدينة كلها بين فترة وأخرى.

توقف عند الباب الرئيس الداخلي. انتبه لوجود ظلال أشخاص يقفون في المطر قرب البوابة الخارجية وكأنهم يريدون الدخول إلى المشرحة. اقترب من الباب الرئيسي الحديدي والمشبق بالزجاج ..لصق وجهه بالمساحات المغطاة بالزجاج في الباب، وضع يده أمام عينيه ليتأكد من الرؤية، فتبينت له صورة لأشباح ثلاثة في معاطف مطرية وقبعات على الرأس، وهم يحملون مظلات واقية من المطر بأيديهم. كانت الأشباح الثلاثة تنظر إليه بتحد وكأنها تنتظر أن يفتح لها، لكنه ابتعد مرعوباً.

أحس بسريان الخوف في نفسه. تراجع. أراد العودة إلى غرفته، لكن راودته رغبة في التأكد من الأمر. رجع إلى الباب، لصق وجهه ثانية بالزجاج ونظر إلى البوابة الخارجية، فاستغرب أنه لم ير أحداً. ازداد فضولا في التحقق من عدم رؤيته لهم.. جال ببصره في المساحة المتاحة أمامه فلم يجد أي شيء يدل على وجود أي شخص .. ظل للحظات ينظر إلى البوابة الخارجية وإلى الشارع الذي يغسله المطر الذي يبدو من خلالها. فجأة، أحس بشيء من العتمة..وأنه لم يعد يرى شيئا. أبعد رأسه قليلاً عن زجاج الباب، فرأى مرعوباً وجه شخص يقف، وينظر إليه عبر الزجاج من الجهة الأخرى من الباب الرئيس .

الشخص الآخر كان يضع يديه أمام عينيه أيضاً ليرى الحارس آدم أو يتأكد من وجوده. صرخ الحارس آدم وتراجع راكضا باتجاه الطابق تحت الأرضي حيث غرفته.

تعثر على الدرج، وكاد يتدحرج إلى الأسفل، لكنه حاول التماسك والتشبث بالسياج الحديدي الذي يلتف مع انسياب درجات السلم، لكنه لم ينزل مباشرة، وإنما جلس مقرفصا على درجات السلم العليا، القريبة من الطابق الأرضي. أخذ يتنفس بصعوبة..لقد شله الخوف.. لكن فضوله كان أقوى من خوفه..أطل برأسه حذراً، محدقا إلى الباب الرئيس، فرأى ظل الرجل لا يزال عند الباب، وانتبه إلى أنه كان يقبض على مصباح يدوي مضيء يوجهه نحو أعلى السلم الصاعد إلى الطابق الأعلى، وإلى سقف الطابق الأرضي، وكأنه يعطي إشارة ما لأشخاص غير مرئيين.

انتبه الحارس آدم إلى أن ثمة حركة تأتي من الطابق الأعلى، وسمع وقع أقدام تقترب، فخاف من أن يراه أحد، فنزل السلم مسرعا، وحينما صار في الطابق تحت الأرضي، ركض إلى غرفته داخلا. أغلق الباب خلفه بالمفتاح. جلس على الصوفة الجلدية وهو يقشعر من الرعب.

(5)

الهــؤلاء .. والمنسييون

من هم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا أمام البوابة..؟ كيف دخلوا..؟ وأين اختفوا فجأة..؟ ومن هو هذا الذي كان ينظر إليّ عبر المدخل الرئيس للمشرحة..؟ من أين جاءوا..؟ ولماذا في مثل هذا الوقت..؟ هل هم من الهؤلاء، زوار الفجر، الذين يأتون عادة بعد منتصف الليل..؟ هل هم الذين يثيرون الضجة في الطابق الأعلى بعد منتصف الليل..؟ ولماذا كان يضيء هذا الرجل الشبح داخل المشرحة بمصباحه وكأنه يعطي إشارة لوجوده..؟.. ولماذا لم أستطع الإنتظار لأرى من هبط الطابق الأعلى ليفتح له الباب..؟.

كان الحارس آدم مرعوبا، لكنه بالرغم من ذلك لا يكف عن التساؤل، بل إنه وبرغم الرعب الذي يهزه، لم يتراجع عن رغبته بزيارة الطابق الأعلى وكشف سر الأصوات الغامضة هناك.

مر وقت طويل وهو جالس على الصوفة الجلدية، باحثا عن إجابة في متاهة االأسئلة التي يطرحها على نفسه. نظر إلى الساعة المنضدية فرأى أنها تشير إلى خمس دقائق بعد منتصف الليل. انتبه إلى أنه لا أصوات

ولا حركة تأتي من الطابق الأعلى بعد. استغرب الأمر، فعادة في مثل هذا الوقت تكون الأصوات والحركة واضحة.

لم يسحبه من متاهته سوى صوت خافت لوقع خطوات أشخاص ينزلون السلم إلى الممر. أصاخ سمعه، فأحس بأن الأشخاص صاروا في الممر. قفز إلى الباب، نظر من خلال البؤبؤ الزجاجي، رأى مساعد الطبيب وثلاثة رجال بمعاطف مطر شتوية يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت لكن يمكن سماعه وتبيان مضمونه.

وقفوا عند بابه. كانت على وجوه الرجال الثلاثة ملامح صارمة وكأنهم يريدون أن يطرقوا الباب، لكنه سمع مساعد الطبيب يقول لهم:

- لا داع أيها السادة. صدقوني، هذا الحارس غبي، ومجرد سؤاله ربما سنثير شكوكه أكثر. هو لا يتكلم مع أحد تقريبا، ولا يسأل إلا نادرا، بل لا يجيب على الأسئلة إلا نادراً..صحيح أنه سألني عن أصوات غريبة يسمعها بعد منتصف الليل تأتي من الطابق الأعلى..لكنني طمأنته بأنه لا شيء يثير القلق..بل وحذرته من أن يسأل عن هذا الأمر أحداً... وأعتقد أنه نائم الآن.. فلماذا نثير الشكوك بسؤاله..وبإستجوابه..؟

فقال أحدهم بصوت خافت لكنه صارم وحاد:

- لكني رأيت شخصا ينظر من خلال زجاج الباب الرئيس، باب المدخل. ثم اختفى فجأة.

فقال المساعد بنبرة من يحاول تهدئة الآخر وإقناعه:

- من المؤكد أنه ليس الحارس. فقد كنت عنده في حدود الساعة الحادية عشرة، وقال لي بأنه سيقوم بجولته الروتينية حالا، وكما أعرف جيدا أن الأمر لا يطول أكثر من ربع ساعة، وهذا يعني أنه لم يكن الشخص الذي رأيته يا سيدي حاج آدم العسكري.

فسأل شخص آخر بنفس النبرة قائلاً:

- من يكون إذن..؟

صمت مساعد الطبيب لحظة ثم قال بطريقة ماكرة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

- ربما من هؤلاء المنسيين الذين بقوا لدينا، ولم نخرجهم، أو ممن خرجوا وجئنا بهم ثانية..؟ فكما تعرف هؤلاء غير منضبطين ويستهزئون بكل ما نقوم به.. وهم بإعداد كبيرة لدينا..

صمتوا جميعا، وكأن ما قاله أقنعهم، لكن أحدهم قال:

- أعتقد أن الذي كان هو الحارس وليس أحداً من هؤلاء.. لكن ربما أنت على حق أيضا.. فهؤلاء يمكن أن نتوقع منهم أي شيء..ربما سيثورون ذات يوم..

فقال الرجل الثالث بهدوء وكأنه ينطق بحكمة مخيفة:

- ربما..ربما يثور الموتى..ربما تثور الجثث..

فنظر مساعد الطبيب إليه برعب وقال:

- هذا مستحيل..الموتى لا يثورون..

فرد الرجل الثالث عليه بعد لحظات وبهدوء أشبه بالهمس:

- بلى..ألم تسمع بثورات الموتى..وزحف الجثث..؟

- لا..

كان الحارس آدم عند الباب يتنصت من الداخل. إحدى عينيه مثبتة بالبؤبؤ الزجاجي. سمع كل ما دار بينهم من حوار، ورآهم يستديرون راجعين، صاعدين السلم، إلى أن اختفى صوت وقع أقدامهم.

ظل واقفا للحظات، مفكرا بهؤلاء الرجال الثلاثة الذين لمح أشباحهم عند البوابة الخارجية..من هم ..؟ كيف دخلوا إلى المشرحة..؟ ولماذا دافع مساعد الطبيب عنه..؟ ومن هم هؤلاء المنسيون الذين تحدثوا عنهم..؟ أين هم..؟ وماذا يعني هذا ثورة الموتى وزحف الجثث..؟ وما معنى الإشارة إلى الطابق الأعلى..؟ هل هذا يعني وجود قاعات أخرى في الطابق الأعلى؟ وهم هؤلاء الذين يسخرون من كل الإجراءات المحكمة..؟ أهم هنا في هذه المشرحة أيضاً..؟ أهم جثث أيضا..؟ لكن أين يحفظونها..؟ أنه يعرف الطابق الأعلى لا توجد فيه سوى غرف الطبيب الخفر، ومدير المشرحة الذي يكون دوامه صباحيا فقط، والذي لم يره قط منذ عمله هنا، وغرفة السكرتارية الخاصة به، وقسم الحسابات وهو أكبر أقسام الإدارية في المشرحة، ولا يتذكر وجود أشياء أخرى في الطابق الأعلى غير هذا..

عاد وجلس على الصوفة الجلدية شاعرا بإزدحام الأسئلة وبضياع الأجوبة.. ماذا عليه أن يفعل..؟ أحس أنه في الأشهر الستة الأخيرة صار لا يعرف نفسه جيدا..؟ صحيح أنه كان دائما بالكاد يعرف نفسه قبل هذا الوقت، إذ كان يحس بطعم آخر للحياة، حيث كان يزور أمه المسكينة ويعطيها معظم ما يقبضه من المشرحة، ولا يستقطع منه إلا ما يحتاجه لشراء الكتب والمجلات وأقراص الأفلام، إلا أن كل ذلك اختفى فجأة، كل شيء تغير منذ ستة أشهر. لقد فقد الرغبة في الأشياء كلها، حياته تحولت إلى روتين قاتل في هذه المشرحة التي تملؤه بالرعب، لأنه يكتشف يوميا أشياء جديدة تثير الخوف والتساؤلات المرعبة.

فجأة عاوده الشعور بأن عليه أن يعرف كل شيء في الطابق الأعلى، فهو في النهاية حارس المشرحة، والمسؤول عن كل ما فيها من أشياء، جثث وكتب وأدوات، وأسرار. لكن أية أسرار وهو لا يعرف ماذا يجري في الطابق الأعلى..؟ لا يعرف من يصعد إليه ومن يهبط منه ..؟ ومن يدخل إلى هذه المشرحة ومن يخرج منها..؟ بل هو لا يعرف وظيفة هذا المساعد أصلا..؟ لقد سمعه وهو يناقش هؤلاء الأشباح الثلاثة.. وقد كانوا يستمعون له ويناقشونه بإحترام..؟ بل يبدو أنه مهم جداً، وإلا لماذا كان الأشباح الثلاثة معه وليس مع الطبيب الخفر..؟.

لم يستطع الحارس آدم الرقاد. حاول ذلك.. كان قد استلقى على الصوفة الجلدية، وغطى نفسه بالبطانية القطنية، لكن دون جدوى. فجأة، سمع أصوات موسيقى تأثيرية كتلك التي تصاحب أفلام الرعب، موسيقى

متوترة، موسيقى تصاحبها أصوات جموع كورالية، موسيقى حزينة ومتوترة، تبعث الرهبة والانتعاش في الروح في الوقت نفسه. كانت الموسيقى تأتيه من بعيد.

قام متتبعاً الموسيقى، مقتربا من النافذة العالية التي تقارب رأسع والتي تستوي مع أرضية الشارع الذي يمتد خلف المشرحة..عرف أنها تأتي من الطابق الأعلى، ومن الجهة التي تقع فيها غرفة الطبيب الخفر. كيف ذلك والوقت الآن، كما تشير عقارب الساعة، هو منتصف الواحدة بعد منتصف الليل..؟

تملكته إرادة غريبة في أن يصعد إلى غرفة الطبيب الخفر، لكن صوت الموسيقى يعني أنه لم ينم بعد..؟. الموسيقى أثرت فيه كثيراً، أحس بجاذبيتها التي تشبه السحر، فأصر مع نفسه بأن يصعد إلى الطابق الأعلى.

ظل واقفا إلى جانب النافذة العالية، نظر في أرجاء غرفته نظرة سريعة مستعرضا كل جوانبها، لكن دون أي هدف محدد، وأخيرا حسم أمره، وخرج.

تلفت في ما حوله في الممر. كان الممر خاليا. توجه إلى الدرج صاعداً بحذر وكأنما كان يخشى أن يُصدر صوتاً. في الطابق الأرضي ليس ثمة أحد سوى هذا السكون الثقيل الذي يقبض على النفس بقوة ويبعث فيها رعشة الخوف والتوجس. انتبه إلى أن صوت الموسيقى قد توقف.. ولم يعد يسمع أي صوت يأتي من الطابق الأعلى.. أي صوت.. كيف

توقفت الموسيقى؟ هل هناك من انتبه له..؟ لا.. لا أحد هنا في الطابق الأرضي، فحتى المساعد الذي كان يظهر له في أي محاولة للصعود إلى الطابق الأعلى بعد منتصف الليل قد اختفى ولم يظهر له هذه المرة.

ما أن وضع قدمه على درجة السلم المتجه إلى الطابق الأعلى حتى أحس بالارتباك والخوف والتردد، لكن فضوله المتأجج كان أقوى من كل هذا التردد والخوف. توقف للحظات كي يستجمع قواه.. صعد السلم بخطوات حذرة، لم يستخدم مصباحه كي لا يثير أحدا، إذا ما كان هناك من أحد.. وهكذا أخذ يصعد في الظلمة.

عند الدرجة الأخيرة تعثر، وكاد تعثره يثير ضجة، لكنه ولكي يتجنب أية مفاجأة قد تحصل انبطح على الأرض بكل جسده، ثم بدأ يزحف على أرضية الطابق الأعلى. ألقى نظرة على الطابق محاولا أن يستكشف شيئاً ما في هذه العتمة، فانتبه إلى أنه ليس في الطابق الأعلى..؟ كيف هذا..؟ هو لم يصعد سوى طابقٍ واحدٍ، وأن المشرحة ليس فيها سوى الطابق الأرضي المواجه للباب الرئيس، والطابق تحت الأرضي حيث قاعة التشريح وقاعة الثلاجات، وهذا الطابق الأعلى حيث الإدارة وغرفة الطبيب الخفر، لكن هذا الطابق ليس هو الطابق الأعلى الذي يعرفه ويفتشه كل ليلة..؟ أين هو إذن..؟.

ظل منبطحا على الأرض لدقائق. أجال بصره محاولا ً اختراق العتمة، فربما ضللته عيناه قبل قليل، وتشوشت عليه الرؤيا.. لكن ماذا يرى

الآن..؟ هو متأكد الآن بأنه ليس في الطابق الأعلى الذي يعرفه جيداً. ها هو يرى أمامه ممرا واسعاً على امتداد البصر، تتوزع الغرف والزنازين على جانبيه، أرضيته وجدرانه من المرمر. ممر أشبه بممرات المركبات الفضائية الكبرى التي يراها في أفلام الإثارة العلمية.. ممر لانهائي في طوله.

سعى بضع خطوات زاحفا، مقتربا من أول غرفة على مقربة من السلم. سمع حوارا خافتاً، أصوات خائفة تتحاور. زحف بحذر إلى أن صار قرب الباب، فوصل سمعه الحوار الذي بدا بين ثلاثة أشخاص أو أكثر.. سرت في جسده سكينة باردة. ظل منبطحا على بطنه. مد كفيه ووضع رأسه عليهما. كان الفضول المتهيج في أعماقه يدفعه للسكون الجسدي..أدرك أنه ربما من خلال الاستماع إليهم وما سيتحدثون به سيعرف أين هو الان.. كان أحدهم يروي لهم قصته..وبدا له بأن هناك من يروي لهم قصته بالتأكيد..لكنه خمن من أول جملة بأنهم لا يعرفون بعضهم بعضا، وأرهف سمعه لحكاية الشخص الذي أخذ يسرد قصته قائلا:

-نعم..حدث هذا فجراً..حينما كنت ماشيا في طريقي إلى الفرن، وكما قلت لكم أنا أعمل خبازا.. رأيت سيارة للشرطة تقف بالعرض من الطريق وعلى أحد جوانبه قاطعة منتصفه. كانت أشبه بسيطرة مؤقتة ومتنقلة، فعلى مبعدة من هذا المكان قليلاً توجد سيطرة عسكرية ثابتة منذ سنوات. خفت أول الأمر، لكني استرجعت شيئا من شجاعتي لأني رأيت أن السيارة حكومية وتعود للشرطة.. ولمحت الضابط وإثنين من الشرطة

معه. حينما اقتربت منهم، نزل أحدهم وصار في منتصف الطريق، سلمت عليهم محاولا أن أبدو طبيعيا، فردوا السلام بود، اقترب مني ذلك الشرطي الذي نزل من السيارة قائلا:

- أخي، هل من الممكن أن تبرز هويتك الشخصية..؟

أخرجت هويتي وسلمتها له، نظر إليها وهو يسألني:

- هل من الممكن أن أسألك إلى أين تذهب في مثل هذه الساعة من الفجر؟

ارتبكت قليلا..لكني حاولت أن أخفي ارتباكي، فأجبت:

- أنا خباز، أعمل في الفرن القريب، وهذا هو وقت عملي اليومي، الأخوة في سيطرة الحرس الوطني التي تبعد قليلا من هنا يعرفونني، أنا أذهب وأجيء في هذا الطريق يوميا.

نظر الشرطي إليّ بتمعن وابتسم، ثم قال لي :

- لحظة، أخي، على السيد الضابط أن يقرر في أمرك.

قال ذلك وذهب حاملا هويتي إلى الضابط الذي كان جالسا في السيارة. تحدثا بهدوء، لم أسمع شيئا مما قالاه، لكني رأيت الشرطي يقترب مني باسما ويقول:

- أخي، أنت تعرف ظروف البلاد حالياً.. ونحن نسهر على سلامة المواطنين.. والحقيقة أن هناك اشتباهاً بسيطاً في اسمك، فهل

يمكنك أن تتفضل معنا إلى المركز القريب..؟ الأمر لا يطول سوى بضع دقائق، إنها إجـراءات روتينية بسيطة ثم تذهب لعملك، بل نحن سنوصلك إلى الفرن.

ارتبكت حينها، أحسست ببرودة تجتاح جسدي، لكني لم أشك في شيء سيء جداً، لأن الشرطي تحدث معي بود وبثقة لا تدع أي مجال للشك في صدق ما يقول.. وبرغم ذلك أحسست بشيء غير مريح في الموقف كله..فقلت له بنبرة فيها بعض الرجاء:

- لكني سأتأخر عن العمل، هل يمكن أن نذهب أولا إلى الفرن لأخبر زملائي بأني ذاهب معكم كي يقوموا هم ببقية العمل لحين عودتي؟

فقال السائق الذي كان يسمع حوارنا قائلا من مكانه خلف المقود:

- يا أخي لماذا كل هذا اللف والدوران.. الوقت الذي يستغرقنا في الذهاب إلى الفرن سيكون أطول وأكثر من ذهابنا إلى المركز، وانجازنا لكل الأمور، وعودتنا أيضا، فلا تطيل الأمر علينا، وهيّا معنا لتستفيد أنت من الوقت، وخذ كلمة مني، إذا ما تأخرنا هناك، فسأقوم أنا شخصيا لإيصالك إلى الفرن، هل يرضيك هذا؟

- لكن..

فقال الضابط حاسماً الموقف:

- بلا لكن..هيا اصعد معنا ودعنا ننجز عملنا..

لم يكن أمامي أي مجال للرفض والمماطلة، فصعدت معهم. حين وصلنا المركز أدخلوني إلى غرفة فارغة إلا من بعض الكراسي، وذهبوا. رأيت الضابط الذي لم يتحدث طوال الطريق بعد جملته الحاسمة، يدخل إلى إحدى الغرف، ثم يخرج منها، ويمضي دون أن ينظر إلي، بل حتى الشرطيين والسائق الذي وعدني بأن يرجعني بنفسه إلى الفرن قد اختفوا أيضا.

كنت وحدي في الغرفة، قلقاً، وحيداً، مرتبكاً من كل ما حصل لي. كان الوقت يمر ثقيلاً، ولا أحد يسأل عني.. وكأنما قد نسوا أني هنا في الغرفة مع الكراسي الفارغة. فجأة، دخل علي شرطي آخر، من غير الذين جاءوا بي إلى المركز، فقال لي بصوت في نبرة عدائية واضحة:

- أنت آدم صاحب فندق السعادة..؟

فوجئت، فقلت له بارتباك:

- عفواً ، أنا آدم الخباز ولست آدم صاحب فندق السعادة.

- لا أعرف.. أرسلوني إلى الشخص المدعو آدم صاحب فندق السعادة..وقالوا لي إنه في هذه الغرفة.. تعال إلى العقيد..

شعرت بشيء من الراحة، ظننت أني قد تبينت الأمر، إنه ليس أكثر من اشتباه في الأسماء والشخوص، فهم يظنونني آدم صاحب فندق السعادة..لذا تبعته وبين جوانحي أمل بالإفراج السريع وإنهاء هذا الإلتباس... فأدخلني إلى الغرفة التي دخلها الضابط الذي أتى بي إلى هنا، في أول لحظة من وصولنا إلى المركز.

ما أن دخلت الغرفة، ورأيت العقيد على كرسيه وراء مكتبه العريض حتى طرأ على ذهني سؤال ساذج لا يمكن أن يطرأ في ذهن أحد وهو في مثل حالتي، ألا وهو : كيف دخل هذا الشخص من خلال هذا الباب إلى الغرفة..؟

كان جبلا من الشحم المترهل، برأس صغير، ووجه دائري صغير، لا ترى منه سوى ثقبين يمكن أن تقول إنهما مكان لعينيه، وفم بشفتين ناحلتين وكأنه بدون شفاه، أو أن فمه كان كفم السمكة.. وأنف أفطس.. يا إلهي..من هذا..؟. ما أن نظر هذا العقيد إليّ حتى شعرت بالارتعاش. عيناه الصغيرتان كانتا تشعان حقداً أصفر، حقداً مريضاً، فشعرت بالرعب يسري في كل مسامات جسدي، وعرفت من لحظتها بأني قد ضعت، ولا أحد يستطيع أن يخلصني من براثن هذا العميد الحقود.

فجأة، جاءني صوته رفيعاً، حقودا، سائلاً :

- هل أنت آدم صاحب فندق السعادة..؟

حاولت الإجابة فلم أستطع، وبالكاد خرج صوت متحشرج من فمي:

- لا سيدي.. أنا آدم الخباز..

فقال بصوت حازم، حقود، وكأنه حكم قدري:

- لا.. أنت تكذب.. أنت آدم صاحب فندق السعادة..

لا أعرف كيف أوصف لكم حالتي. شعرت بالإنهيار والضياع فجأة.. فتوسلت إليه بصوت أشبه بالبكاء، وبشجاعة نادرة:

- سيدي العقيد.. الله يحفظك.. ويبقيك ذخراً لنا..أنا آدم الخباز، أنا لست آدم صاحب فندق السعادة.. أنا أعمل في (مخبز الأمير الحديث)، يمكنكم أن تسألوا صاحب الفرن عني.. اسمه الحاج آدم أبو الكرامات.. اسالوه عني.. أنا آدم الخباز.

بدا لي أن العقيد لا يريد الاستماع إليّ والاقتناع بأني آدم الخباز، لأنه لم ينظر إليّ أصلا، وإنما كان منشغلاً بالأوراق التي أمامه أثناء توسلي له.

فجأة، شعرت بالرحمة الإلهية تهبط عليّ حينما دخل الشرطي وقدم التحية قائلا:

- سيدي.. السيد الضابط آدم أبو المحاسن يسأل عن آدم الخباز، إن كنتم، سيادتكم، قد قررتم شيئا بخصوصه..؟

أحسست بأن الشرطي الذي أعطيته هويتي كان صادقا في قوله بأن ثمة اشتباهاً في الأسماء لا أكثر، لكني كنت مخطئا، وقد اكتشفت ذلك فيما بعد بلحظات، إذ قال العقيد، بترهل واسترخاء:

-قل للضابط بأن يطلق سراح آدم الخباز، فالذي ألقوا القبض عليه فجر هذا اليوم، والذي يقف أمامي الآن، هو الإرهابي آدم صاحب فندق السعادة. أما الشخص الذي لديكم فأطلقوا سراحه..مفهوم..أما هذا فخذوه.

كان الحارس آدم يستمع، شعر بالشفقة على هذا الخباز البائس الذي لم يحالفه الحظ بأن يثبت شخصيته وهويته الحقيقية.. والذي تم استبداله بشخص آخر..ألقي القبض على آدم الخباز بتهمة أنه آدم صاحب فندق السعادة..من أجل إطلاق سراح الآخر..يا للمسكين.. وبدا للحارس آدم الذي كان منبطحاً، أن زملاء آدم الخباز الذين يشاركونه غرفته تعاطفوا معه أيضا، وكانوا متشوقين لمعرفة مصيره الذي ساقه إليهم، فسمع صوت أحدهم يسأله:

- ومن هو الآخر، آدم صاحب فندق السعادة؟

استمع الحارس آدم إلى الخباز آدم وهو يطلق حسرة عميقة من أعماق صدره، قائلاً:

- أخذوني مباشرة إلى الزنزانة، وهناك وجدت أربعة آخرين. بدا لي أن كلا منهم لديه قصة شبيهة بقصتي، وعرفت منهم، بأن كان في هذه الزنزانة خمسة إرهابيين، من عتاة القتلة، من مختلف محافظات العراق. وجميعهم قد تمت محاكمتهم وصدرت أحكام الإعدام بهم، لكن لم ينفذ بهم الحكم، ولكونهم من

أصحاب العلاقات والمال والنفوذ، فمن خلال علاقاتهم المباشرة أو من خلال علاقات أهاليهم، أو الجهات التي ينتمون إليها، استطاعوا شراء ذمم العقيد والضابط وبعض المسؤولين والشرطة، بحيث كل يوم تذهب دورية الشرطة لإلقاء القبض على أي عابر سبيل وحمله إلى هنا وإبداله بأحد هؤلاء المحكومين بالإعدام، الذين لم ينفذ الحكم بهم بانتظار وصول عابر السبيل الخامس الذي سيتم اعتقاله وإعدامه بدل الإرهابي آدم صاحب فندق السعادة، الذي خرج قبل قليل من حبسي في الزنزانة باعتباره آدم الخباز واعتباري آدم صاحب فندق السعادة. وقد عرفت من بقية أفراد الزنزانة بأن الشخص المدعو آدم صاحب فندق السعادة كان يأوي الإرهابيين في فندقه، بل وهناك في فندقه كان الإرهابيون يعدون الألغام، ويذبحون الضحايا في حمامات الغرف وكذلك في الطابق تحت الأرضي للفندق، لكنه كان يغطي على أعماله بتقديم الخدمات الترفيهية للمسؤولين في السلطة الجديدة، وأنه أيضا كان يأتي بالفتيات بل وحتى الفتيان للعميد وبعض ضباط هذا المركز الذي اعتقلوني فيه.

طبعا كل من المعتقلين البقية روى لي قصته، وطريقة إلقاء القبض عليه، والتي لا تختلف إلا في الاسم وبعض التفاصيل الصغيرة، ومكان الاعتقال، عن قصة اعتقالي.

وفي ذلك الفجر نفسه، أخذونا جميعا إلى قبو في أسفل بناية مهدمة ومهجورة، وهناك، وبلا رحمة، وبدون أن يتركوا لنا فرصة أن نتشهد قبل الموت، أطلقوا النار علينا، باعتبارنا إرهابيين وقتلة ومحكوم علينا بالإعدام، بل تم إعدامنا باعتبارنا نحمل اسماء شخصيات أخرى غير أسماء شخصياتنا الحقيقية، ولكي لا يتم تسليم جثثنا إلى أهلنا، لأننا أُعدمنا باعتبارنا شخصيات أخرى وفق التقارير الرسمية وشهادات الوفاة المختومة من والمصدقة من الجهات المعنية..لذا تمّ نقلنا جثثنا إلى هذا المكان، ووزّعونا على الغرف والزنزانات هنا، وأنا صرت في هذه الزنزانة. .

شعر الحارس آدم بالخوف، فهذا الخباز هو ميت إذن..؟ لكن كيف يمكنه أن يتحدث..؟ ربما هو لم يسمع نهاية القصة جيداً..؟ وبرغم ذلك شعر بالأسى، والشفقة على آدم الخباز، بل إنه من شدة تفاعله مع مأساته، نسي المهمة التي جاء من أجلها، وهي استكشاف الطابق الأعلى، كما راودتـه الرغبة في مواصلة الاستماع لبقية الحوار، حيث كان أحد الموجودين في تلك الغرفة، يريد أن يتحدث، لكن سمعه يسأل:

- كل هذا يحدث في هذا الزمن الجديد..؟ لقد كنت أعتقد بأن ذلك يحدث في زمن النظام السابق، الذي كانت تحصل فيه مثل هذه القصص، لاسيما في التسعينات، بعد الانتفاضة ضد دكتاتور البلاد. لم أكن أتصور بأن هذا يحدث الآن، وفي الزمن

الذي احتل الأميركان فيه البلاد وأتوا بفريق من الضحايا كي يمسك كرسي الحكم..؟ لكني، لو أردتم الحقيقة، لا استغرب ذلك، هل تدرون لماذا..؟

- لماذا..؟

جاء صوت آدم الخباز الذي كان آدم الحارس قد ميزه، وهو يسأل.. فأجابه الصوت الآخر:

- لأني أنا المدعو آدم كاشف الليل، سليل عائلة كريمة مشهود لها بالتقوى، وأحد المشاركين في الانتفاضة المباركة، التي اجتاحت البلاد في بداية التسعينات، قد شهدت العجب العجاب مما يجري في هذا الزمان الذي جاء بأخوتي إلى الحكم، حتى صرت أتمنى لو يمكنني الخروج من هذه الزنزانة لأواصل النضال ضد هؤلاء الذين تاجروا بدمائنا، ولنصحح المسار. لكن كما ترون أنهم يلقون بنا في النسيان، بل لا أحد يسأل عني، فأنا هنا منذ سنوات.

لقد تم إلقاء القبض علي، بعد أن حملت السلاح مشاركاً في الانتفاضة التي أطلقها الجنود المحبطون، والمنكسرون، المنسحبون من الكويت تصل إلينا، لذا حملنا السلاح أيضاً فحاصرنا مقرات السلطة ورجمناها بالقاذفات. قتلنا الكثير من أزلام السلطة..وأجهزة المخابرات، وتمت السيطرة على بعض

المدن..لكن لا نعرف حينها ما الذي حدث، وكيف استردت السلطة قوتها..؟ المهم، واجهنا هجوما مضادا من السلطة.

هربت إلى الأهور القريبة من محافظتنا. لم أكن وحدي، هناك رأيت المئات من الذين شاركوا في الانتفاضة، لكنهم هربوا مثلي إلى تلك الأماكن. ولا أطيل عليكم، بعضنا ذهب إلى بلدان مجاورة، لكن شخصياً لم يكن أمامي أي طريق للنجاة..

بعد فترة طويلة من العيش في البيوت الرطبة والبراري والأهوار.. تسللت إلى البصرة. عملت هناك إسكافيا، ثم حائكا، ثم خياطا، وبائع شاي في المسطر، بائع كبة، ومهناً أخرى، رغم أني بالأساس مدرّس للكيمياء في ثانوية ما في محافظتي.

في البصرة تعرفت على عائلات كريمة، طيبة، عديدة، بعضها كانت لديه علاقة بالحزب الحاكم ومؤسساته، لكنهم كانوا لا يؤذون أحداً، بل على العكس كانوا يسعون لمساعدة بعض العائلات التي تقرر السلطة اعتقال أبنائهم من خلال تسريب المعلومات لهم..وتحذريهم قبل الأوان.

أذكر ليلة وصول خبر اغتيال أحد المراجع الدينية مع أبنائه. خرجت مظاهرة احتجاجية في البصرة. تم اعتقال المئات الذين تم إعدامهم فورا، بل إن بعض الجثث ألقيت في الطريق أمام أبواب أهاليهم، ومنعوا الآباء والأمهات من دفنهم، ولم يتجرأ

أحد أن يقوم بذلك، لأن الإعدام سيكون نصيب كل من يقترب من الجثث، بل الإعدام لجميع أفراد العائلة التي ينتمي إليها ذلك الذي تجرأ على الاقتراب من الجثث. هل تصدقون أن الكلاب كانت تأكل من جثث الأبناء أمام أنظار الآباء والأمهات المنكوبين بإعدام فلذات قلوبهم؟..من يصدق هذا..؟

حينما صارت البصرة ضيقة عليّ، وخطرة بالنسبة لي، تسللت إلى محافظتي ثانية، لاسيما وأن أحوال البلاد كانت مفككة، بحيث يمكن الزوغان من براثن السلطة. لكن لم أكن أعرف أني أتوجه لمواجهة قدري.

هناك في محافظتي، سكنت مع صديق لي، من عائلة متدينة. كان صديقي يعيش مع أخته، وهي فتاة جميلة، ومهذبة، وملتزمة دينياً، ولم نتأخر كثيرا، وبدون رسميات كثيرة، زوجني صديقي أخته، لكن ظروف عملنا السري لم تتح لنا الحياة المستقرة الآمنة، لذا كنا، أنا وأخو زوجتي نتنقل كثيرا.

بعد سنة تقريبا، رزقنا أنا وزوجتي بطفلة رائعة الجمال أسميتها حواء، تكريماً لأمنا حواء أم البشر، لكني مع الأسف لم أستمر بالعيش لأراها تكبر أمام عيني، ففي إحدى المرات التي كنت أزور فيها زوجتي، وكان أخوها عندنا في البيت أيضا، تمت مهاجمتنا نتيجة معلومات، لا نعرف كيف وصلت إلى السلطة،

لأننا كنا ندخل المدينة سراً ونخرج سراً. المهم، تمّ إلقاء القبض علينا. ولم يطل الأمر كثيرا، فقد مات أخو زوجتي تحت التعذيب، بينما أنا نقلت إلى سجن أبي غريب.

هناك قابلت ضابطا من محافظتي، ما زلت أذكر اسمه، آدم أبو المجد. كان أبو المجد يقوم بتعذيبي يوميا، بل أحيانا يقوم بذلك مرات عدة في اليوم الواحد. كان لا يكتفي بالتعذيب وإنما يوجه الشتائم لي، ويسيء لسمعة زوجتي.

هذا الضابط نفسه جاء ذات فجر، وأخذني مع بعض المعتقلين الآخرين، إلى سرداب، أشبه بمخازن فارغة كانت لخزن العتاد العسكري، وهناك أطلق الرصاص علينا. وحده كان وليس معه أي من فريق الإعدام الاعتيادي، وكأنه كان ينتقم منا شخصيا. ولكي يخفي هذا الضابط المجزرة التي اقترفها، أخذ يوزع جثثنا على المشارح. واستقر بي المقام هنا منذ سنوات، لا أحد يسأل عني، ولا جهة فكرت بالاستفسار عن هويتي.

ما أصابني بالخيبة والأسى والحسرة، ولا أريد أن أقول الندم، أنني، والآلاف الذين ضحوا بأنفسهم، قمنا بذلك عن إيمان وقناعة، لكن كان معنا، قبل أن يأتوا بك إلى هنا، شاب من أهالي الكوت، شاب في بداية العشرينات من عمره، أسمه كما أذكر آدم النمر، كان يعمل في مديرية الصحة بالمحافظة،وكانت

جريمته أنه يذهب إلى الجامع القريب من بيتهم، وأنه يزور العوائل الفقيرة ليحمل لهم بعض الدواء، فتم اعتقاله وتعذيبه، وإعدامه. الغريب أن أبناء عمومة الفتى آدم النمر، بعد أن عرفوا باعتقاله، وإعدامه، ذهبوا جميعهم إلى دائرة الأمن والمخابرات وقدموا براءة دم منه. والمضحك المبكي في الأمر أن رجال الأمن حققوا معهم أيضا، مستفسرين عن مصدر المعلومات التي أكدت لهم بأنه أعدم، فأخذوا يختلقون القصص حول ابن عمهم، زاعمين أنه مخرب، وأنهم لا يعرفون أنه أُعدم لكنهم أرادوا أن يثبتوا ولاءهم للحكومة. ومن مهازل هذا الزمان، وسخرية الأقدار فيه، أن أبناء العمومة هؤلاء، وضعوا صورة ابن عمهم الشهيد آدم النمر على أبوابهم يوم دخول الأميركان إلى بغداد وسقوط النظام رسميا.. وصاروا يفتخرون بأن لديهم شهيداً.

هذا الفتى الشهيد آدم النمر قد روى لي قصته بكاملها، وقد أخبرني بأن الضابط آدم أبو المجد الذي أعدمني وأعدم الفتى آدم النمر أيضا وعدداً آخر من المعتقلين قد تمت ترقيته..؟ ومن سخرية الأقدار أن ترقيته تمت في هذا الوقت..أي في ظل السلطة الجديدة التي يُفترض أن تكون سلطة عادلة لأنها سلطة الضحايا..لكن هكذا هي الحياة.. المهم..ما أثارني أن هذا الفتى آدم النمر كان مراراً يتحدث عن أخ له، كان شيوعيا،

وهرب إلى إيران، واستقرت أحواله بعد حل وترحال، في الدنمارك، وهو شاعر وكاتب معروف، وأن هذا الفتى الشهيد يأمل أن يقوم أخوه الكاتب بكتابة رواية عن ألمه ومعاناته، ويكشف عن حجم الضيم والظلم والخديعة الذي تعرّض هو له، كما يفضح القاتل آدم أبو المجد.

هذا الشاب القتيل، آدم النمر، من أهالي الكوت، قد تم اعتقاله مرة أخرى في هذه الزنزانة ونُقل إلى جهة مجهولة نتيجة محاولته قتل إحدى الجثث، فقبل سنتين فقط، جاءوا إلينا بجثة رجل في الخمسين من العمر، قال لنا إنه أخو المناضل البطل آدم أبو المجد، الذي يقود لواء لمحاربة الإرهابيين وقتلة أبناء الشعب، وأن الإرهابيين انتقموا بقتله هو لأنهم لا يستطيعون الوصول لأخيه الذي صار من رجال الحكم اليوم.

حينها هجم الفتى الشهيد آدم النمر على أخي القاتل آدم أبو المجد، القائد الجديد للواء محاربة الإرهاب، وأحد رجال الحكم الجديد، وأراد أن يقطع رأسه، وكاد يحقق ذلك، لكن فجأة دخل علينا رجال أنيقون، ومراتب مختلفة من الحرس الوطني، أخذوا الفتى آدم النمر، متهمين إياه بالإرهاب، وأعتقد أنهم قرروا تقطيعه، فأقصى ما يمكن أن تعاقب الجثة به هو تقطيعها إلى أوصال، أو فصل الرأس عن الجسد.

كان الحارس آدم يشعر بأنه مشوش، فهنا كما يبدو غرفة وليست قاعة لحفظ الجثث، ولا قاعة للتشريح، إذن، ما هذا الذي يسمعه..؟ هل هؤلاء الذين يسمعهم هم أحياء أو هم قتلى وشهداء كما يدعون..؟ وفكّر مع نفسه، ربما لأنهم شهداء فهم أحياء..؟ لكنه أجاب نفسه بنفسه في أن الشهداء هم أحياء عند ربهم يرزقون، وليسوا أحياءً في مشرحة..؟ ثم إذا ما رواه هؤلاء صحيحاً، كيف له هو الحارس آدم أن ينتمي لبلاد صار قتلة الأمس فيها أبطال اليوم؟.

التفت إلى الساعة الالكترونية التي تزين الواجهة المقابلة له على الجانب الآخر. كانت تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، لكن بالرغم من كل ما سمعه، فأنه لم يكتشف بعد أين هو..؟ فجأة سمع طرقا على الجدار، خاف، أنصت قليلا واضعا رأسه على الجدار وهو في وضع الإنبطاح، فسمع صوتا نسائياً يسأل:

- أنتم.. يا إخوتي.. أنتم يا من هناك في الزنزانة المجاورة، هل تسمعونني ..؟

انتبه الحارس آدم بأن خلفه زنزانة أخرى، فيها امرأة، وهي لا تناديه هو، وإنما تنادي الذين كانوا يتحدثون قبل قليل، آدم الخباز، وآدم كاشف الليل.. سمع آدم الخباز يجيبها قائلا:

- نعم نسمعك. مَن أنت..؟

- أنا حواء آل ياسر .

- هل أنت وحدك هناك؟

- نعم، أنا هنا وحدي لحد الآن..

- هل تحتاجين شيئا؟

- لا.. لكني أردت أن أقول للأخ آدم كاشف الليل بأني أعرف عائلته.. أقصد أني أعرف ابنته ربما..

فجأة جاء صوت آدم كاشف الليل، متلهفا، وهو يسألها:

- كيف، هل تعرفين زوجتي وابنتي..؟

- ابنتك صارت مذيعة معروفة..

- مذيعة؟

- نعم مذيعة معروفة اسمها حواء البغدادي..

- لكن يفترض أن تحمل لقب حواء كاشف الليل وليس البغدادي، فنحن من أهل الحلة ولسنا من بغداد.

- لا أعرف، لكنها مرة تحدثت عن أبيها وخالها، وأن خالها مات تحت التعذيب وتم إعدام والدها.. وقد استمعت قبل قليل لك وأنت تروي قصتك، فظننت أنها هي.

- كم عمرها؟

- أعتقد أنها في الثامنة عشرة أو العشرين.

- العمر متقارب.. لكن أنا متأكد بأنها ليست هي، فمن المستحيل لابنتي أن تكون مذيعة..؟ هذا مستحيل، فأمها امرأة متدينة ومن عائلة متدينة، ويستحيل أن تسمح بأن تكون ابنتنا مذيعة..

- إذن أنا آسفة؟

- لكن ما قصتك أنت؟ يبدو أنك من أبناء هذا الزمان وهذه العصر الجديد؟

- نعم أنا حواء آل ياسر . كنت سجينة سياسية في زمن الطاغية، لأن زوجي أعدم كونه شيوعيا، وأخي أعدم كونه إسلامياً، وقد اعتقلت باعتباري من أقرباء الدرجة الأولى للمجرمين المعادين للسلطة والحزب الحاكم، لكن في الأوراق الرسمية لاعتقالي كتبوا أن تهمتي هي ممارسة الدعارة. وقد بقيت في السجن لسنوات طوال...حينما تم اعتقالي كانت لدي طفلة صغيرة، لا أعرف مصيرها، وبرغم أني كنت خارج السجن، عندما أحتل الأميركان بغداد..حيث جاءوا بجيوشهم الجرارة وأزالوا النظام، إلا أني لم أعثر على طفلتي.

- كيف لم تعثري على طفلتك؟

سألها آدم كاشف الليل. صمتت المدعوة حواء آل ياسر للحظات، ثم واصلت:

- هكذا ببساطة.. لم أعثر عليها. سألت عنها جيراننا، حينما اعتقلت قالوا لي بأن الأمن أخذوها، بل لم أعثر علي ابني أيضا.

فسألها آدم الخباز مستفسراً:

- ابنك؟ قلت إن لديك طفلة واحدة فقط؟

- نعم. هذا صحيح. حينما تم اعتقالي كان لدي طفلة واحدة من زوجي، لكن في السجن تم اغتصابي لمرات ومرات، بل صرت عشيقة أحد ضباط السجن، عشيقة، بمعنى أنه كان قد خصّني له فقط، وحملت منه، وولدت في السجن ابناً، لكنه أخذه مني. بعد ذلك حملت لأكثر من مرة، وكنت أجهض نفسي بوسائل مختلفة. حين خرجت من السجن عرفت مكان الضابط الذي أخذ ابني..ذهبت إليه مطالبة بابني، لكنه اليوم صار ذا رتبة عالية في وزارة الداخلية، وصار النظام الجديد لا يستغني عن خدماته، وهو الذي لم يكتف بسجني وإنما أرسلني إلى هنا جثة. المهم، لقد اختلطت الأمور، الكل صار لديهم شهداء، والكل صار سجيناً سياسياً، حتى صار المرء يعتقد بأنه لم يبق في البلاد من لم يدخل السجن..؟ لأكمل لكم الحكاية.

كانت بعض المنظمات العالمية تزورنا، ومنها بعض المنظمات الحقوقية أيضا، وتذكرت ذلك وأنا استمع للأخ آدم كاشف الليل حينما تحدث عن الضابط القاتل آدم أبو المجد، فقد كانت

تزورنا محامية عراقية، ترافق الوفود الأجنبية التي تزور سجن النساء، وكانت هذه المحامية الشابة تحمل صورة الطاغية على صدرها. أتدرون أنها الآن شخصية سياسية معروفة ومستشارة كبيرة في الحكومة؟

فسألها آدم كاشف الليل بنبرة منكسرة، وكأنه لا يريد أن يزيد من خيبته :

- وكيف وصلت إلى هنا؟ يفترض أن تكرمي كونك من السجناء، وأختا لشهيد وزوجة لشهيد؟

- هل تعرف أنني بقيت لفترة طويلة أدور في دوائر الدولة لأثبت أنني لست عاهرة، وإنما سجينة سياسية وأخت لشهيد وزوجة لشهيد..؟ هل تعرف أن هذه المحامية التي كانت تضع صورة الرئيس السابق على صدرها حينما تزورنا، حينما قابلتني ذات مرة في ظل الحكم الجديد، أخبرت عني بأني كنت أتعاون مع النظام لمقبور وأني كنت أكتب التقارير ضدها..؟ هذه المرأة صارت اليوم تتحدث باسم النساء العراقيات، وتفصل في الحديث عن الظلم الذي تعرضت له.

فسألها آدم الخباز بإنكسار:

- لكنك لم تخبرينا كيف وصلت إلى هنا بعد أن صرت حرة وأطلق سراحك من السجن؟

صمتت المرأة في الزنزانة المجاورة للحظات، ولما طال صمتها ناداها آدم الخباز:

- هل أنت هنا..؟ هل تسمعيننا..؟

تنحنحت حواء آل ياسر، ثم واصلت:

- أعتذر لإنشغالي مع نفسي قليلاً..لكن مثلما وصلتم أنتم، وصلت أنا..ربما بطريقة مختلفة قليلاً.. فكما أخبرتكم أني لم أعثر على ابنتي، لكني عثرت على ابني، وعلى الضابط الذي كنت عشيقته، والذي هو والد ابني. لقد رأيته على شاشة التلفزيون يروي عن مآسي السجناء في العصر المظلم السابق، وكيف أنه كان يهرّب السجناء، ويأوي السجينات، وأنه كان ينقلهن إلى المستشفيات بحجة المرض، ويهربهن من هناك بمساعدة آخرين، دافعاً الكثير من أمواله، وأنه.. وأنه، وقرأت اللقب الذي يجمله الآن، واسمه الكامل، وأنه مسؤول كبير في الداخلية.

طبعاً لم أصبر، ذهبت في اليوم الثاني إلى الداخلية، وبشق الأنفس عرفت مكان عمله وتواجده، ولم يكن الأمر سهلا أبداً لأني حينما سألت عنه، تمّ التحقيق معي، خوفاً عليه، فشرحت لهم أني كنت سجينة، وكان هو قد ساعدني، وأني أريد رؤيته لأشكره، وذرفت الدموع، وقدمت لهم هويتي وأوراقي الحقيقية

التي تثبت أني كنت سجينة سياسية فعلاً والتي حصلت عليها بشق الأنفس، إلى أن صدقوني. المهم، ذهبت إلى مكانه، وطلبت مقابلته، وبعد سؤال وجواب، وتفتيش صارم، سمحوا لي بمقابلته. طبعاً هو لم يتوقع رؤيتي، وربما كان قد نسيني وإلا ما سمح لي بمقابلته، لكنه ما أن رآني داخلة عليه، حتى تأهب وأخذ سلاحه بيده...هل تستطيعون تخيل المشهد..بقينا للحظات ينظر أحدنا إلى الآخر. لقد عرفني فوراً، وربما ارتعب لأني أعرفه جيداً، وأعرف تاريخه، ووجهه الحقيقي، لكنه، ولا أدري لماذا، استرخى قليلاً فجأة، ربما تذكر الليالي واللحظات التي كان بها معي، ولا أخفيكم فقد كان معجباً بي جداً، وكان يكنّ لي مودة لم يستطع إعلانها. بقينا للحظات ينظر أحدنا إلى الآخر، ثم التفّ من وراء كرسيه، بعد أن وضع المسدس على طاولة مكتبه، وتقدم نحوي قائلا، بشكل رسمي بارد، رغم أن نظراته كانت تستكشف جسدي:

- هذه أنت؟ الحمد لله على سلامتك..؟ كيف حالك..؟

- الحمد لله.

قاطعني سائلاً، وكأنه يريد إنهاء المقابلة بأسرع ما يمكن :

- هل تحتاجين لشيء، للمال، أو لانجاز معاملة، أو للعمل..؟

- جئت أسأل عن ابني.

- ابنك؟ أي ابن؟ هل لك ابن..؟ أين هو؟ ما اسمه؟ كي أستطيع مساعدتك؟

- ابني الذي هو ابنك أيضا..؟

- اخرسي، أي ابن الذي هو ابنك وابني..؟

- ابني الذي ولدته في السجن منك..؟ ابني الذي أخذته مني؟

ارتبك من صوتي الذي بدا يعلو قليلا، فقال:

- اسمعي جيدا، يمكنني الآن أن أزجّ بك في السجن إذا ما واصلت حديثك بهذا الصدد، هل تفهمين..؟ أنا لا أعرفك أصلا..؟ ولكني رأفة بك يمكنني أن أبحث لك عن عمل.

- أنا لا أبحث عن عمل، وإنما أريد رؤية ابني.

ولا أدري كيف طرأ في ذهني أن الصورة المؤطرة التي على مكتبه هي لابني، فذهبت مسرعة لرؤيتها، وفعلا رأيت صورة لصبي جميل، لكن إلى جانبه تقف امرأة أخرى. التفت إليه صارخة:

- هذا ابني أليس كذلك؟

صمت للحظات، رأيت الصراع الذي يتأجج في أعماقه، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه وقال بلهجة عصبية آمرة:

- كفي عن هذيانك هذا وإلا ستنتهين، هل فهمتِ؟

ما أن سمعت منه تهديده هذا، وكانت صورة ابني قد فجرت براكين الألم في أعماقي، ففقدت هدوئي وأخذت أصرخ عالياً:

- ماذا، أتهددني؟ ماذا تريد أكثر، أخذت ابني وتريد قتلي؟ سأفضحك وأفضح أمثالك، سأفضح هذا المسؤول الذي كان يقضي لياليه باغتصاب السجينات السياسيات، بينما اليوم هو حامي للعدالة، سأفضح تاريخك الأسود.

لم أستطع أن أواصل كلامي، إذ تلقيت صفعة شلّت فكي، وفي لحظة عاد لمكتبه وضغط على جرس هناك، فدخل ضابط عسكري قدم التحية له، وسمع منه غاضبا:

- خذوا هذه المجنونة من هنا، وأخرجوها من الدائرة، وإذا ما عادت ثانية فاعتقلوها والقوا بها في السجن، مفهوم ؟

- مفهوم سيدي..

وسحبني الضابط من يدي، ومضى بي خارجاً. لم أكن استطع أن أقول شيئاً، كانت ضربته قوية جداً، ومفاجئة، لكني، وأنا في الطريق، صرت أتوسل للضابط قائلة:

- صدقني يا أخي أنه أخذ ابني مني. أنا كنت سجينة سياسية، وكان هو ضابطاً للسجن، وقد كان ينام معي، وحبلت وولدت ابناً أخذه مني، أنا لا أريد شيئاً، فقط جئت أسأل عنه، لكنه يتهمني بالجنون. أنا أعرفه جيداً. لقد كان يغتصب السجينات السياسيات كلّ ليلة.

التفت الضابط لي وقال بلهجة فيها مواساة وتحذير :

- اسمعيني يا أختي، لا أدري عن أي شيء تتحدثين، وسواء كان ما تقولينه صحيحاً أم لا، فنصيحتي لك أن تنسي كل ذلك، ابنك، وعالم السجن، وما كان يفعله هناك، فلستِ ممن يستطيع مواجهته. اسمعيني إذا أردت البقاء حية. قادتنا الجدد الذي جاء معظمهم من الخارج لا يعرفون شيئا عن الذين كانوا قد بقوا هنا، فهم يثقون بكل من هب ودب، ويبحثون عن أتباع..نحن نعرف الكثير، لكننا نخاف أن نتحدث، فهؤلاء لا يترددون من إبادتنا مع عوائلنا، وإلقاء التهمة على الإرهابيين. اذهبي لحالك، فأنت أثرت على نفسك اليوم عاصفة لا أعتقد أنها سوف تنتهي بسلام.. اختفي من أمام عينيه.

- لا.. أنا زوجة شهيد وأخت لشهيد، وإذا ما كان زوجي شيوعياً، ولا حظ لجماعته في الحكومة، فأن أخي من الإسلاميين، وهو شهيد، وأنا كنت سجينة سياسية.

- يا أختي.. افهميني جيداً.. أنصحك بالابتعاد عن هؤلاء.. فحتى لو صدقك بعض الشرفاء، إلا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

حينما صرت في الشارع كنت كالمجنونة فعلا. أهذا هو الحال الذي كان يحلم به أخوتي وزوجي وبقية الشهداء حينما ضحوا بأنفسهم. أهذه هي البلاد التي كانوا يحلمون بها؟ لا أدري ما الذي جرى بعد ذلك،

لكني، صرت أحسّ بأني مراقبة، وهناك أشباح تظهر وتختفي من أمامي حينما أتنقل.

وذات يوم كنت في طريقي إلى إحدى الجمعيات النسائية التي تقودها بعض الأخوات، من زوجات الشهداء، وأخواتهم، وقبل أن أصل إلى مقر الجمعية، وعند منعطف الشارع، اصطفت سيارة بيضاء جانبي، سيارة من نوع البيجو ، وقفز منها اثنان، أمسكا بي وأدخلاني إليها عنوة، وانطلقوا بي إلى مكان مجهول.

أخذوني إلى مكان خارج بغداد، لأن الطريق كان طويلاً، وكنت معصوبة العينين، فلم أعرف أي اتجاه سلكوا. وأخيراً توقفت السيارة، وأخرجوني منها، وأدخلوني إلى مكان ما، ثم رفعوا العصابة السوداء عن عيني، فوجدت نفسي في غرفة مؤثثة بشكل جيد، وبدا المكان وكأنه شقة سكنية. ورأيت أمامي رجلين أنيقين، ووسيمي الوجه، بلحى خفيفة. ابتسما لي وقالا لي أهلا وسهلاً بك. ثم أخذا يطرحان الأسئلة عليّ، عن تفاصيل حياتي كلها، وانتهوا بالسؤال عن سبب زيارتي للداخلية قبل أيام، فشرحت لهم كل شيء.

الغريب أن كلامي لم يفاجئهما حينما أخبرتهم عنه، وعن اغتصابه للسجينات، وقصتي معه. وبعد أن انتهوا من التحقيق معي خرجا. ويبدو أنهما غادرا المكان.

بعد ذلك دخل عليّ اثنان تبدو ملامح الشر على وجهيهما ونظراتهما، ولم ينتظرا طويلاً، إذ أخذاني من مكاني وأدخلاني غرفة

يتوسطها سرير نوم عريض، وبدون أي كلام، ألقياني على السرير، واغتصباني معاً، كل منهما كان منشغلا بقسم من جسدي.

الصراخ، الشتائم، التهديد، التوسل، كل ذلك لم ينفع معهما. وحينما انتهيا مني سحلاني إلى غرفة الحمام، وهناك أطلق واحد منهما رصاصة على صدري. ثم لفاني وأتيا بي إلى هنا.

- ومن كان هذان اللذان حققا معك؟

سألها آدكم كاشف الغطاء، فقالت بتردد:

- لا أعرفهما، لكنهما كانا في غاية التهذيب، وأكدا بأن هناك اختلاطاً في الأشياء، وأنهما سيصححان الوضع.

فقال آدم الخباز ساخراً:

- أي وضع سيصححان؟ هل صدقتهما؟

- لِمَ لا ؟ لم أر منهما ما يثير الشبهة أو الدناءة التي حصلت معي بعدهما.

- ومن كان هذان اللذان قاما باغتصابك وقتلك؟

- لا أعرفهما؟ لكن كان أحدهما وهو يغتصبني، يصرخ بي : هذا جزاء من لا تسمع النصيحة.

فسألها آدم كاشف الغطاء قلقاً:

- أية نصيحة؟

- لا أعرف؟ فالكل ينصح في هذا الزمان. حتى في الزمن السابق كان كل من يقوم باغتصابي ينصحني بالسكوت وإلا فستكون العاقبة وخيمة، وتكون نهايتي سوداء، وفي هذا الزمان الكل ينصح، حتى إن التلفزيون صار وسيلة للنصيحة. ثم ..

لم يستطع الحارس آدم أن يسمع بقية قصة هذه المرأة، فقد انتبه إلى أن أحد الأبواب البعيدة قد فُتح وخرج الرجال الثلاثة منه، ومعهم مساعد الطبيب. لم يكن آدم الحارس يعرف ماذا يفعل، زحف راجعا بكل قوته إلى الدرج، وألقى بنفسه على درجات السلم، وزحف نازلاً بالتزحلق على الدرجات التي كان ركبتاه ترتطم بها بقوة. وحين وصل إلى منتصف السلم وصار بعيد عن مدى بصر القادمين، ركض بأقصى ما يمكنه من سرعة، هابطاً السلم إلى الطابق تحت الأرضي حيث غرفته، فدخلها مسرعاً، وأغلق على نفسه بالمفتاح.

ظل جالسا على الصوفة لدقائق. فكّر في كل ما رآه، وسمعه..وسأل نفسه مجدداً: ما هو هذا المكان الذي رآه..؟ أين يقع..؟ بالتأكيد أنه ليس الطابق الأعلى..؟ لقد أحس وكأنه في مكان ليس له علاقة بالمشرحة.. زنازين مصطفة واحـدة إلى جانب الأخـرى وتغور عميقا في الأفق اللانهائي.. لكنه برغم ذلك قد رأى مساعد الطبيب والرجال الثلاثة هناك..؟

أحسّ بالارتباك والضياع أكثر. فكر مع نفسه بأن المساعد والرجال الثلاثة لم يروه، فقد كانوا بعيدين عنه، والطابق كان تغمره عتمة غريبة.

ولكي يبعد القلق عن نفسه، أخذ الريموت كونترول وضغط عليه، فأضاءت شاشة التلفزيون، فأخذ ينتقل بين القنوات مستقراً على قناة تلفزيونية تبث أفلاما أجنبية مترجمة إلى العربية.

(6)

الضيـــوف

كان الظلام يخيم على بغـداد في تلك الساعة من الليل. ليل ثقيل، ممطر، يخيم على بناية المشرحة التي بدت وكأنها قلعة من العصور الوسطى أو بيت للأشباح.

الحارس آدم كان في غرفته يتابع الفيلم الأجنبي، فقد كانت السينما بالنسبة إليه هي العالم الحقيقي. الحياة دائما في مكان آخر كما قرأ عنوان رواية لكاتب أعجبه.

مضت دقائق منذ أن بدأ الفيلم الذي كان اسمه (القيامة). إنه معجب بالمخرج..وقد شده الفيلم منذ أول لقطاته..وهو يتحدث عن حياة الهنود الحمر قبيل وصول الأسبان إلى سواحل العالم الجديد. أحس نفسه واحداً من شخصيات الفيلم..يشاركهم مرحهم..ومغامراتهم البدائية..وأحس نفسه واحداً من الجالسين حول موقد النار حينما بدأ شيخ القبيلة العجوز الهرم يروي حكاية عن الإنسان والحيوان.

كان العجوز يتحدث ووهج النار يضيء وجهه، بينما وجوه الجالسين تنظر بإجلال ورهبة إلى وجهه الذي يشي بحكمة السنين:

- جلس الإنسان وحيدا وحزينا جداً، فجاءت جميع الحيوانات إليه وقالت له: نحن لا نريد أن نراك حزيناً، لذلك يمكنك أن تطلب منا كل ما تتمنّى. فقال الإنسان: أتمنى أن تكون لي عينان تبصران بقوة. فقال له النسر: خذ بصري. فقال الإنسان: أريد أن أكون قويا. فقال له النمر: خذ قوتي وكن قويا مثلي. فقال الإنسان: أريد أن أعرف أسرار الأرض. فقالت له الأفعى: سأريك إياها جميعا.

وهكذا جاءت جميع الحيوانات في طابور لتمنح الإنسان كل ما تملك وما يميزها. وحينما حصل الإنسان على كل شيء قام ذاهبا. عندها قالت البومة لبقية الحيوانات: هكذا حصل الإنسان على كل المعارف وحاز على كل القوى، وبإمكانه أن يفعل كل شيء، وأنا أشعر بالخوف منه. فقال الأيل: لقد حصل الإنسان على كل شيء يحتاجه ويتمناه ولن يكون حزينا بعد الآن ولن يحتاج إلى شيء. فقالت البومة: لقد رأيت فراغا هائلا في داخل الإنسان، فراغا شاسعا كالجوع، وهذا لن يتركه هادئا، لذلك فهو حزين، وسيطلب أكثر وأكثر، وسيأخذ ويأخذ دائما، إلى أن يصرخ العالم ذات يوم: لم يبق عندي أي شيء لأمنحك إياه، لم يبق عندي شيء.

حينما انتهى الفيلم شعر الحارس آدم بالخوف، لأن الحياة التي كان يعيشها سكان المايا لم تفرق إلا قليلا عن حياة المشرحة، بل إن حياة الإنسان أقسى من حياة المشرحة، فالجثث التي يتم شقها وتقطيعها يوميا هنا في المشرحة هي لموتى، لبشر فارقوا الحياة الواقعية، وبالتالي فهم لا يشعرون بالألم، لكن كهنة المعابد عند المايا كانوا يقدمون الأضاحي بشق صدور الأسرى وإخراج قلوبهم وهم أحياء ثم قطع رؤوسهم ودحرجتها من أعلى المعبد الذي بني على شكل هرم فرعوني.

في هذه الأثناء سمع آدم صوت بكاء آتٍ من الممر. صوت صبي ينادي أمه. ظنّ أن صوت البكاء قادم من التلفزيون. فأخفض الصوت، فجاء الصوت واضحاً من الممر.

أحسّ الحارس آدم بارتباكٍ ممزوجٍ بالخوف والدهشة. أبقى صوت التلفزيون منخفضاً إذ يمكنه قراءة ترجمة شريط الكتابة الذي يتضمن المعلومات عن الفيلم وصانعيه، فالفيلم بأحداثه قد انتهى. لكن صوت البكاء لم ينته. كان ينخفض للحظات، ويصمت للحظات، لكنه يعود عالياً في أرجاء الممر.

نهض بهدوء، أخذ المصباح الذي يعمل بالبطاريات معه بالرغم من أن الممر كان مضاء. راودته فكرة غير منطقية أو معقولة، لكنه حاول من خلالها تفسير هذا الصوت الذي يسمعه، فربما هو صوت بكاء صبي نسيه أهله في المشرحة، لكنه أجاب على تساؤلات نفسه: من الذي يجيء بصبي

إلى مشرحة..؟ وكيف لم يفتقده أهله..؟ وأين كان هذا الصبي طوال كل هذا الوقت..؟ ولماذا يأتي صوته من الممر في الطابق السفلي..؟ ماذا لو جاء مساعد الطبيب والرجال الثلاثة الغامضون مرة أخرى..؟

فتح باب الغرفة فصار صوت البكاء أقوى. خرج إلى الممر، ولا إرادياً اتجه نحو جهة الدرج، لكنه انتبه إلى أن صوت البكاء يأتي من الجهة الأخرى المقابلة، جهة قاعة الثلاجات وقاعة التشريح. ركّز أكثر، فانتبه إلى الصوت يأتي من قاعة التشريح المغلقة والغارقة في الظلام.

بحذر شديد وبخطوات مرتبكة وبطيئة اتجه الحارس آدم نحو جهة الصوت. انتبه إلى أنه كلما اقترب من قاعة التشريح، تحول صوت البكاء وصار أقرب إلى الأصوات المتداخلة. حين وقف أمام قاعة التشريح سمع الصوت بشكل أوضح، بل لم يكن صوت الصبي وحده وإنما هناك مجموعة أصوات تحاول أن تواسيه على غياب أمه. بغريزته عرف أن هذه الأصوات هي أصوات الجثث.

ارتعب آدم، وعاد راكضاً إلى غرفته. أغلق الباب بالمفتاح، وبقي خلف الباب واقفاً وهو يحسّ بقشعريرة رعب تسري في أوصاله. ماذا يجري له..؟ هل جنّ..؟ هل ما يراه، ويسمعه، هو حقيقة..؟ ومن يصدقه إذا ما روى ذلك..؟ في الأعلى سمع قصص أصحابها يؤكدون بأنهم أعدموا، لكنه لم يرَ أياً منهم، لقد سمع حديثهم فقط.. لكن هنا هو يعرف هذه الجثث، رآها..وأنها في طابقه..؟ بل إنه المسؤول عن حراستها..؟ لكنها جثث تتحدث..؟ لقد سمع ذلك..

فجأة، سكت صوت البكاء. لكنه سمع ضجة باب يُفتح، وصوت خطوات تتعالى في الممر. الخطوات تتجه نحو جهة الغرفة والدرج. أخذ قلبه يدق بقوة. حين وصل صوت الخطوات إلى باب غرفته رفع كفه، لا إرادياً، ومسك فمه كي يمنع نفسه من الصراخ.

توقفت الخطوات عند باب غرفته للحظات وكأن هناك من يتنصت على الغرفة، ثم استمرت الخطوات ماشية باتجاه الدرج والطوابق العليا في المشرحة. انتبه إلى أن الخطوات لمجموعة تمشي، لكنها تخطو بالتتابع وبحركة يبدو ايقاعها آليا، إلى أن اختفت صاعدة الدرج.

حين اختفت الأصوات صاعدة الدرج أحسّ وكأنه تخلص من كابوس خانق. جلس على الصوفة الجلدية. أحسّ بعرق بارد يبلل جبينه ورقبته وظهره.

ضغط على الريموت كونترول فأوقف جهاز تشغيل الأقراص المدمجة وبدأ البث التلفزيوني. شاشة التلفزيون كانت تعيد بث إعلانات عن بورصة الأفلام قد بثّتها في بداية المساء. كان الحارس آدم ينظر إلى الشاشة بعيون تائهة لا ترى شيئا. كان يحسّ وكأنه يسمع دقات قلبه، وراوده إحساس بالاختناق، وبضيق في التنفس.

ظل على جلسته ينظر إلى الشاشة. لم يكن يفكر بشيء، ولا يريد التفكير بشيء. كان يحسّ بفراغ شاسع في أعماقه.

لم تمر إلا دقائق معدودة حتى بدأ الضجيج يصل مسامعه مرة أخرى. وقع خطوات على الدرج وهي تهبط إلى الممر. إنهم عائدون. لكن من هم ..؟

بدأت أصوات خطواتهم تقترب..حينما وصلت الخطوات إلى باب غرفته توقفت. فجأة سمع طرقاً على الباب. طرقاً خفيفاً أول الأمر. طرقاً أشبه بلمس الأصابع على الباب.

هبَّ واقفاً برعب. لكنه ظل جامدا هكذا للحظات، أحسها طويلة بشكل قاتل. كتم أنفاسه، وضغط بكفه على فمه بقوة. لا يعرف كم مرّ من الوقت، لكنه أحسّ، ثانية، بطرق خفيف على الباب، طرق كان أوضح من المرة الأولى.

بلع ريقه بصعوبة. لم يتحرك من مكانه. فجأة، أفزعه طرق قوي على الباب، ثم تلاه صوت أشبه بالحشرجة وكأنه يأتي من مكان بعيد لكنه واضح:

- آدم ... آدم .

حاول أن يتحرك نحو الباب فأحس بما يشبه الشلل. لم يستطع الحركة. صار الطرق أقوى، بل أحسّ بأن هناك أكثر من كف تطرق عليه الباب، يرافقها صوت عميق يناديه:

- آدم

لم يستطع أن يفتح الباب، لكنه من شدة الرعب توجه نحو البؤبؤ الزجاجي النابت في وسط الباب، وبيد مرتجفة حرك الغطاء الذي يغطي البؤبؤ ووضع عينه عليها لينظر من خلاله. أحسّ أنه في حالة ارتجاف وضعف. وبالبول الدافئ ينساب بين فخذيه.

ها هي الجثث التي نُقلت صباحاً إلى المشرحة جميعها تقف أمام الباب. نظراتها جامدة، ووجوهها جامدة الملامح لكنها ناطقة. ظل جامداً في مكانه. كانت الجثث تقف أمام الباب، وجوهها الجامدة تأتيه من خلال البؤبؤ الزجاجي. كانت تمد أيديها إليه وكأنها تريد جره من خلال الباب.

ظلت الجثث لفترة تطرق الباب منادية باسمه، لكنه كان يقف عند الجهة الأخرى من الباب جامداً لا يتحرك. فجأة أخذت الجثث تسير باتجاه قاعة التشريح. مرّت وجوهها من خلال البؤبؤ الزجاجي. انتبه إلى أن الصبي معهم أيضاً، وكان ممسكاً بيد العجوز.

اختفت الجثث مع وقع خطواتها المرعبة، لكنه ظل واقفاً. أحسّ أن الجثث دخلت إلى قاعة التشريح، لأنه سمع حركة باب قاعة التشريح وهو يغلق بقوة. لم يستطع أن يتماسك أكثر، أحس أنه ينهار وأن جسده يخر إلى الأرض. ظل على جلسته تلك متكئاً بظهره إلى الباب لفترة طويلة.

لم يعرف الحارس آدم كم مرّ عليه من الوقت وهو جالس عند الباب من الداخل مبللاً ببوله. كان قد استقر نفسيا وذهب عنه الخوف..أحسّ بأنه خلال الفترة التي جلس فيها متكئاً إلى الباب كان في غياب تام، وكأنه غير موجود. أخذ يفكر في كل ما جرى. أحسّ بدفق من الشجاعة يسري فيه، وفضول للتأكد من كل ما مرّ عليه..؟

نهض من مكانه. راودته رغبة قوية في أن يذهب إلى قاعة التشريح، وكأنه ليس الحارس آدم الذي بال على نفسه من الرعب قبل قليل. فتح باب غرفته بهدوء وحذر. أطل برأسه متلفتا في الممر.

كان الممر خالياً، وغارقاً في الصمت وكأنه مكان مهجور ومنسي لا ينتمي لهذه المشرحة الغارقة في الظلام، في مدينة غارقة في الظلام، في بلاد غارقة في الظلام، في قارة غارقة في الظلام، في كوكب صغير غارق في الظلام. في كون يغمره الظلام.

خرج الحارس آدم من غرفته بحذر شديد وكأنه يخاف أن يسمعه أحد، أو يهاب أن يوقظ أحداً، أو أن ينتبه إليه أحد. فجأة جلس على الأرض عند باب غرفته، ثم أخذ يزحف شيئاً فشيئاً بحركة متوترة وبطيئة جدا، على يديه وركبتيه متوجهاً نحو من قاعة التشريح.

حين صار على مقربة من قاعة التشريح تناهى إلى سمعه أصوات الجثث وهي تتحدث في ما بينها. أحسّ بالخوف يعاوده مرة أخرى. وشعر

بما يشبه التيبس والشلل في عضلاته. لعن نفسه المتقلبة وفضوله الجامح اللذين حرضّاه على الخروج من غرفته. ظل منبطحاً في مكانه، يملؤه الرعب، مستمعا لما قد يدور من حديث، متمنياً أن لا ينتبه إليه أحد، لاسيما الجثث. سأل نفسه مرة أخرى: كيف يمكن للجثث أن تتحدث وكأنها بشر أحياء..؟ صحيح أنه سمع، حينما كان في الطابق الأعلى، حديثاً ترويه جثث غامضة، لكنه لم يرَ شيئا وإنما سمع الحديث فقط..؟ وهو ليس متأكداً مما رآه هناك أصلاً، إذ بدا له المكان لا علاقة له بالمشرحة، فهو أقرب إلى مكان خيالي، سماوي..مكان ربما رآه في أفلام الفضاء والخيال العلمي.

حاول الحارس آدم أن يجلس مقرفصا على ركبتيه. لم يستطع أن يقاوم فضوله برؤية الجثث، فتشبث بحذر شديد بأطراف النافذة المطلة من قاعة التشريح على الممر. بحذر كبير أطل بطرف عينه من إحدى زوايا النافذة.. فهاله ما رأى.

رأى كل جثة قد جلست على سريرها النقال، وكانت الجثتان القريبتان من النافذة والباب قد جلستا بمواجهة بقية الجثث الأخرى ممزقتين من جهة الظهر. والجثة التي على الجانب كانت بنصف رأس وبصدر محطم قد اقتلع نصف القفص الصدري في الانفجار.

ارتد إلى مكانه وجلس تحت النافذة ليستمع إلى حديثهن. سمع الجثة التي كانت قريبة من باب القاعة، والتي كانت للفتاة التي تلبس الجينز، تقول:

- كيف سنقضي الليلة هذه . إنها بداية حياتنا الجديدة.

فسمع صوتاً مرتجفا، ضعيفا، أدرك أنه صادر من جثة المرأة العجوز وهي تسأل:

- بداية حياتنا الجديدة...؟؟

- أقصد أول ليلة لنا في تاريخ موتنا..

رفع رأسه لينظر بزاوية وجهه من جانب النافذة فرأى المرأة المحجبة، التي كانت قد جلست على سريرها النقال فتبين الفراغ في جانب من ظهرها، حيث طار عمودها الفقري وكتفاها من الخلف، وهي تقول:

- ألم تسمعوا الحديث النبوي الشريف: الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا.. ؟

المرأة الأنيقة التي كانت مصابة برصاصة في الرأس، والتي قد طار نصف رأسها، قالت:

- بلى، إنه حديث معروف، لكنه حديث غريب حقاً. وكأن الموت هو الحياة الحقيقية، وما الحياة سوى كابوس طويل.

أخذت بقية الجثث تنظر لبعضها، وكأنها تستغرب هذا النقاش في مثل هذه الليلة الحزينة عليهن. الجثة التي كانت عند الباب قالت:

- أنا غير متعلمة مثلكن، إلا أن الذي أعرفه هو أننا نبقى لفترة قليلة جداً في هذا العالم ثم ننتقل إلى عالم الأرواح. غداً سنفترق.

بعد أن يمزقوا أجسادنا، باحثين عن سبب موتنا. وكأنما سبب موتنا مجهول..وربما لن يقوموا بذلك. فقط سيأتي أهلنا لأخذنا من هنا ليدفنوا أجسادنا.

فقالت المرأة العجوز سائلة:

- والذي ليس لديه أهل أو ليس لديه من يسأل عنه ؟ ماذا سيفعلون بجثته؟

- لا أعرف.. ربما سيوضع في الثلاجة. لكن أليس لديك أحد؟ سألت جثة الفتاة التي قرب الباب.

- لا.. لا أحد عندي ليسأل عني.

صمت الجميع. استمرت العجوز وكأنها تحدث نفسها:

- قصتي طويلة...

انبرت الجثة التي كانت في أعماق القاعة، قائلة بصوت مرتفع:

- أنا أيضا لا أحد سيسأل عني..

التفتت جميع الجثث إليها بصمت ودهشة الموتى الجامدة. لكنها استمرت بالحديث:

- أنا غريبة، أقصد ضيفة. وعائلتي في ألمانيا..؟ ربما ستسألون: ما الذي جاء بك إلى بغداد..لتموتي..؟ هل تودون سماع قصتي؟

استمرت الجثث تنظر إليها نظرة استغراب وفضول دونما اعتراض. الجثة التي كانت في أعماق القاعة اعتبرت هذا الصمت علامة الموافقة، إلا أن الجثة التي كانت عند الباب علقت قائلة:

- نرجو أن لا تستعرضي لنا قصصا خيالية، فنحن نعرف أن معظم الذين يأتون من الخارج يروون قصصاً لا يصدقها العقل.

نظرت إليها الجثة التي كانت في أعماق القاعة قائلة بنبرة فيها شيء من العتاب الممزوج بالحزن :

- ولماذا أروي قصصاً لا يصدقها العقل..؟ اسمعي قصتي أولاً، ثم أحكمي عليها في ما بعد.

نظرت الجثة العجوز إلى الجثة الفتية التي عند الباب بعتاب، ثم التفت إلى جثة المرأة الغريبة قائلة:

- احكي قصتك يا ابنتي .. نحن نسمعك.

اتكأ الحارس آدم على جدار القاعة أسفل النافذة. لم يستطيع الحركة كي لا يثير انتباه الجثث، محاولاً الاستماع لما ترويه الجثث من قصص، مأخوذا بالموقف كله.

(7)

حـــوّاء هــانـوفــر

- أنا اسمي حـواء. العائلة التي استضافتني هنا في بغداد أطلقت عليّ اسم (حواء هانوفر) لأني جئت إلى العراق من مدينة هانوفر بألمانيا التي أعيش فيها منذ خمس عشرة سنة تقريباً. عدت قبل أقل من شهر لأراجع بعض دوائر الدولة لاسترجاع أملاكنا التي تمت مصادرتها في بداية الثمانينات، وأيضاً لاستخراج بعض الوثائق الرسمية. صحيح أنه لا معارف لديّ في بغداد لكن أخت إحدى معارفي في هانوفر استضافتني لديها، بل وساعدتني في إرشادي على المؤسسات والدوائر التي عليّ مراجعتها. تركت زوجي وأطفالي في ألمانيا وجئت وحدي.

صمتت الجثة التي كانت تتحدث. ثم واصلت حديثها:

- إنني أشتاق إليهم جداً، ويحزنني أنني لن أراهم بعد الآن. من الطبيعي أنهم لا يعرفون أنني قد قتلت أو يمكن القول ذُبحت في

الانفجار، فكما تعرفون أن شظية قد قطعت رقبتي من الوريد إلى الوريد... أنا أشتاق إلى ابني الصغير جداً. إنه يبلغ من العمر سبعة أعوام. بالمناسبة إنه من زوجي الثاني. لديّ من الأول ولدان، ابن وابنة، ومن الثاني ابنان. زوجي الأول قُتل، قتلهُ أخوه وذلك بعد وصولنا إلى ألمانيا بأقل من ستة أشهر.

- ماذا ..؟

انطلقت هذه الكلمة من أكثر من جثة في آن واحد تقريباً، إلا أن حواء هانوفر واصلت حديثها:

- لا تستغربوا، فحكاية قابيل وهابيل تتكرر كل يوم، وفي كل زمان ومكان. سأحكي لكم ما جرى لي، لأني أرى استفسارات كثيرة في وجوهكم. الحكاية وما فيها بدأت بعد إعدام أخي الأكبر بتهمة الانتماء إلى أحد الأحزاب الدينية، على الرغم من أنه كان شيوعياً، بل وقد اعتقل حينما بدأت السلطة باعتقال الشيوعيين، فبعد أسابيع من التعذيب وقع على تعهدٍ بترك الحزب الشيوعي وعدم ممارسة السياسة أبداً، لكن بعد سنة ونصف تم اعتقاله ثانية بتهمة النشاط الديني وكتابة شعارات ضد الحكومة والحزب القائد. لم يعد إلينا، وحين بدأ والدي بمراجعة الجهات المسؤولة، ودفع الرشاوى لمختلف المراتب والجهات، علمنا أنه أُعدم مع مجموعة أخرى من الشيوعيين بتهمة الانتماء لأحد الأحزاب الدينية..؟.

علقت الجثة الأنيقة قائلة:

- مهزلة..شيوعي يُعدم بتهمة الإنتماء لحزب معاد للشيوعية..

صمتت حواء هانوفر للحظات وكأنها تعيد اكتشاف هذه الحقيقة المهزلة، ثم واصلت حديثها:

- نعم..كانت مهزلة حقيقية..لقد عرفنا في ما بعد بأن الكثير من الشيوعيين أُعدموا بتهمة الإنتماء لأحزاب إسلامية موالية لإيران..أحزاب مؤسسة على معاداة الشيوعية..المهم.. لم تكتف السلطة بإعدام أخي وإنما صادرت البيت الذي كنا نسكنه، ومحلات أبي التي كان لأخي نصيب فيها. أبي أصابته جلطة دماغية بعد شهر من سماع خبر الإعدام ومصادرة البيت والمحلات، ومات على أثرها بشهر. أنا وأمي جمعنا ما نستطيعه من أموال، وبعنا ما نستطيعه أيضاً، وسافرنا إلى الأردن ومنها إلى سوريا.

- وكيف سُمح لكم بالخروج..؟

سألتها الجثة العجوز مستفسرة. نظرت إليها حواء هانوفر وقالت:

- هذه قصة أخرى..لقد بعنا نصف ما نملك تقريباً من أجل استخراج جواز السفر...كنت حينها في بدايات العشرين من عمري.. لم يعجبنا البقاء في الأردن..فتوجهنا إلى سوريا.. سكنا في منطقة السيدة زينب. تعرفنا على الكثير من العوائل

العراقية، ومن مختلف الطوائف والأديان، إلا أن علاقتنا كانت متينة مع عائلة عراقية طيبة، تتألف من ابنين وعدد من البنات. تقدم الابن الأصغر منهم، والذي كان اسمه آدم، لخطبتي، ولأن العائلة كانت قد فقدت الأب فقد قام الأخ الكبير بمفاتحة والدتي والتقدم بشكل رسمي من أجل خطبتي لأخيه آدم. لكني انتبهت ذلك اليوم لنظرات الأخ الكبير الشهوانية، فقد كان يأكلني بعينيه.

جاء صوت الجثة الأنيقة القريبة من النافذة وهي تسأل:

- هل كان الأخ الأكبر متزوجاً..؟
- لا..
- وكيف يتزوج الأخ الأصغر..بينما الأكبر لم يتزوج بعد..؟
- أمي سألت هذا السؤال أيضاً، إلا أن أمهما حكت لأمي بأن الأخ الأكبر أحب فتاة وتقدم لخطبتها إلا أن أهلها رفضوا، فأضرب عن الزواج..
- مسكين..

صمتت حواء هانوفر للحظة. فالموتى لا يعرفون الحقد..لذا قالت بنبرة محايدة:

- هذا المسكين دمر حياتي..المهم..لأكمل قصتي..

فقالت العجوز مواسية:

- واصلي قصتك يا ابنتي..

- خطبتنا امتدت لأكثر من سنة لأن خطيبي آدم كان يصر على سفرنا إلى الخارج وطلب اللجوء السياسي. كان يعمل الليل مع النهار ليجمع ما يستطيعه، لكن العائلات العراقية المهاجرة، مع الأسف، لم تتخل عن النفاق والنميمة ومس أعراض الآخرين من أبناء بلدهم في الغربة، فصرنا مثار حديثهم وأقاويلهم كلما دخل علينا أو سهر عندنا. ومنعاً للقيل والقال، تزوجنا في سوريا، وعاش هو معنا في البيت الذي كنا نسكنه أنا وأمي.

- والأخ الكبير..؟

سألت الجثة المحجبة مستفسرة، فجاء صوت حواء هانوفر موضحاً:

- كان الأخ الكبير، يزورنا بشكل يومي، وكان يلاحقني بعينيه اللتين لا تخفيان شهوته ونواياه تجاهي. لم أستطع أن أخبر زوجي، لكني أخبرت أمي التي نصحتني بعدم إخبار زوجي، لأنه ربما سيحدث شجار بينهما، وسأُتهم بأني سبب خلاف الإخوة، لاسيما ونحن على وشك مغادرة سوريا إلى ألمانيا.

- وكيف غادرتم..؟

سألت الجثة القريبة من الباب:

- زوجي آدم كان قد اتفق مع المهربين الذين حصلوا لنا، لا أعرف كيف، على تأشيرات سفر أوروبية. حاول زوجي، أن يقنع أمي بالسفر معنا إلى أوروبا لكنها رفضت عروضه المستمرة، لأنها لم تكن تريد مغادرة السيدة زينب. كانت تؤكد لنا بألاّ نقلق عليها، فلديها مبلغ لا بأس به يمكنها أن تعيش منه بكفاف، وأنها على أية حال في حماية الشفيعة زينب الكبرى، بطلة كربلاء، وربما ستزورنا إذا ما استقرت أوضاعنا في بلاد الغربة. حينها كنت حاملا بطفلي الأول. وكان قد مرّ على حملي أربعة أشهر.....يوم السفر ودّعنا بعضنا، أنا وأمي، بالدموع التي انسكبت من عيوننا. في المطار لم نكن وحدنا. كانت هناك عائلات عراقية وأفراد من الشباب العراقيين معنا. لا نعرف لحد الآن كيف شكّت شرطة المطار بنا. لا أريد أن أطيل عليكم في سرد التفاصيل، فقد تم إلقاء القبض على الرجل المهرب الذي قام بالحصول على تأشيرة لنا مع بعض الشباب الذين تقدموا قبلنا إلى شباك تفتيش الجوازات.

- وأنتم..هل نجوتم..؟

سألتها الجثة العجوز التي التي بحكم عمرها قد حققت مكانتها بين الجثث، فأجابت حواء هانوفر بهدوء:

- نعم..نجونا..لأننا كنا نراقب الموقف من بعيد..وحينما تم إلقاء القبض على المهرب والشباب..تراجعنا..وتركنا المطار بسرعة....لكن تلك الحادثة كانت ضربة قوية وجّهت لنا. وبالتحديد لزوجي آدم. أنا شعرتُ بارتياح نفسي، لم أعلنه لزوجي، لأني سأرجع لأحضان أمي. على أية حال، رجعنا للسكن عند أمي التي برغم فرحتها لرجوعي إلا أنها تأثرت جدا ً لأنها كانت تعرف كم كلّف ذلك زوجي من المال والمخاطر، لكنها كانت تؤكد لنا بأن الخير في ما اختاره الله لنا....الغريب أن زوجي لم ييأس، بل ازداد إصراره على السفر وكأن الأمر تحول إلى نوع من التحدي، ولم يكن يعلم أنه كان يصرّ على مواجهة حتفه. صار يعمل في أكثر من مكان لتوفير المبالغ الجديدة التي تكلفها المغامرة الجديدة للسفر. المفاجأة التي كانت تنتظرنا هو أن الأخ الأكبر أخذ يخطط للسفر معنا أيضا.

- ماذا..؟

سألت الجثة الأنيقة التي كانت قرب النافذة باستغراب.

- هذا ما حصل فعلاً..لقد أراد أن يكون معنا..لكن لم يكن الأمر سهلاً..وقد امتدت التحضيرات لسنتين تقريبا....المهم..بعد ولادة ابني بسنتين توفيت أمي بالسكتة القلبية. استيقظت فجراً. صلّت الفجر وقرأت القرآن ونامت. لكنها لم تنهض من نومها.

تعرضت لسكتة قلبية أثناء النوم....وعلى الرغم من الحزن الهائل الذي تركه موت أمي، إلا أنها بموتها قدمت لنا مساعدة كبيرة. إذ تركت لنا كل ما كان لديها من مبالغ لمعيشتها، وهذا ما مكّن زوجي أن يجد مهربين آخرين يعبرون بنا إلى أوروبا عن طريق تركيا. وهكذا بدأت رحلتنا الجديدة إلى الموت الذي كان ينتظر زوجـي... حينها كنت في الشهر الخامس من حملي الثاني. لا أحدثكم عن تفاصيل هذه الرحلة، والخوف الذي راودنا خلالها، المهم، وصلنا إلى أوروبا بعد مغامرات عجيبة، وعبور لحدود الدول بشكل غير شرعي مشياً. وهكذا مرت الأيام إلى أن وصلنا إلى برلين في ألمانيا.

- وكيف كانت بلاد الغربة بالنسبة لكما..لاسيما وأنت حامل..؟

سألتها الجثة العجوز.

- خالي الأصغر ساعدنا كثيراً، منذ لحظة اتصالنا معه من ألمانيا، حيث اتصل بدوره بأصدقائه في برلين، لأنه كان يعيش في غرب ألمانيا وفي مدينة بعيدة جداً عن برلين، وهؤلاء الأصدقاء ساعدونا في اللغة وفي ترتيب بعض أمورنا في عملية طلب اللجوء، إلى أن تم فرزنا إلى معسكرات اللاجئين التي بقينا فيها لبعض الوقت، وانتهى الأمر بنا في قرية تابعة لمدينة صغيرة تابعة لمدينة هانوفر.....ولا أطيل عليكم، فقد منحتنا دائرة

الأجانب شقة لا بأس بها، إلى جانب مرتب شهري للطعام، ما كنا لنحلم به في سوريا. هناك ولدت ابنتي، وكان زوجي مليئا بالأحلام، وكان يخطط لمشاريع كبيرة... كنا فرحين بما وصلنا إليه، برغم العزلة الكبيرة، حيث كنا نعيش وكما قلت في قرية تابعة لمدينة صغيرة، وكان علينا عادة أن نمشي مسافة طويلة للوصول إلى المدينة مارين بمقبرة المدينة التي تنتصف الطريق بين القرية والمدينة....لكن فرحتنا لم تدم. ففي صباح يوم أسود اتصل بنا الأخ الأكبر لزوجي من برلين. لقد ترك سوريا والتحق بنا إلى ألمانيا بعد أن عرف عن استقرارنا فيها من خلال اتصال زوجي معه. طلب اللجوء في برلين، وهناك أعطى عنواننا باعتباره من العائلة، فتم نقله إلى القرية نفسها.. دائرة الأجانب أسكنته في بيت للعزاب، لكنه كان يقضي معظم وقته عندنا..... منذ وصول أخي زوجي إلى القرية تحولت حياتي إلى جحيم، بينما امتلأت حياة زوجي بالفرح لوصول أخيه. كان زوجي يكن احتراماً خاصاً لأخيه الأكبر، لكن الأخ الأكبر لم يقف عند حرمة الدين ولا الروابط العائلية، إذ أخذ يتحرش بيّ بشكل صريح ويكاشفني بحبه لي، مؤكداً بأنه ترك سوريا من أجلي فقط، لكي يكون قريباً مني، وطبعا لم يكن بإمكاني مكاشفة زوجي خوفاً من المشاكل التي ستنجم عن ذلك.

- وكيف تصرفت..؟

سألت الجثة التي قرب الباب.

- كان يلاحقني في البيت، وأحياناً كان يختلق الأعذار ليبقى في البيت بينما يذهب زوجي إلى المدينة لشراء ما نحتاجه، وخلال ذلك كان يكاشفني بحبه. كنت أذكّـره بالأخلاق والدين والمحارم إلا أن كل تلك الحجج لا تلقى أي اعتبار لديه، بل وصل الأمر إلى طلب معاشرته أيضاً، وأن يتقاسمني مع أخيه. الغريب أن هذا الأخ الأكبر يقيم الصلاة في أوقاتها جهد الإمكان....

- وكيف قتل زوجك..؟

سألت الجثة المحجبة:

- بدأ يفتعل الشجار مع زوجي، ويتصدى له لأسباب تافهة، ولأبسط رأي يقوله زوجي فيبدأ بالانتقاص منه وإهانته، واصفاً إياه بالتخلف وعدم الفهم، بل إنه في إحدى المرات قال له بأن وجود امرأة مثلي كزوجة له كثير عليه فهو لا يستحقني، وأنه أخطأ حينما طلبني له.

- وماذا كانت ردة فعل زوجك..؟

سألت الجثة الأنيقة عند النافذة:

- لاشيء ..كان يحترم أخاه ويجله..فحينما كنت أسأله أحيانا بأنه يمكن أن يرده..فكان يجيبني بأنه بالنسبة لي بمقام الأب... فمهما كان كلامه جارحاً ومهيناً عليه أن يتحمله.. بعد حوالي ثلاثة أشهر من وصولنا إلى ألمانيا ولدت ابنتي...زوجي انزعج من ولادة ابنتي بينما، وهذا هو الأغرب، فرح الأخ الأكبر بولادتها كثيرا وكأنها ابنته، وكان ينتقد أخاه على موقفه من ولادة ابنتي...كنت في حيرة من تصرفات الأخ الأكبر، فهو يصلي في الأوقات لكنه لا يرى في زنا المحارم إثماً. وقد لاحظت تغيرات طرأت على سلوكه، لاسيما بعد ولادة ابنتي، إذ صار هادئاً ومرحاً، ثم أخذ يتهاون في صلاته، وشيئاً فشيئاً تركها، إلى أن فاجأنا ذات يوم بدخوله حاملاً كيساً فيه عدد من قناني البيرة....لم يكن زوجي متدينا، لكنه يحترم الدين.. لا يصلي، لكنه يصوم رمضان ويلتزم بشكل كامل خلاله.. لكن لا أدري ما الذي أصابه منذ وصولنا إلى ألمانيا، فقد أخذ يتحول بشكل سريع. صار ينتقد كل ما كنا عليه خلال حياتنا في بلادنا، عاداتنا وتقاليدنا، إيماننا وعقائدنا، بل وصل به الأمر إلى التشكيك بوجود الله....الغريب في كل هذا، أنه عندما زارنا خالي الأصغر للمرة الثانية، وهو شيوعي، تناقشا بشكل عميق وحامي، فقد كان خالي قد ابتعد عن الماديين الملحدين وصار

يحدثه عن آفاق الفيزياء والكيمياء بينما كان زوجي يصيح بشكل عصبي، إذا كان الله موجودا فلماذا كل هذا الظلم في الأرض؟ ولماذا يولد الأطفال مشوهين؟ ولماذا يهز الأرض بالزلازل ليموت الأبرياء من أطفال وشيوخ وفقراء؟ وكان خالي يجيبه بأن هذه الأمـور لها علاقة بطبيعة المجتمعات وطبقاتها، والاستغلال الطبقي، واستغلال الدول الصناعية للدول الفقيرة، ويشرح له بعض الأمور التي لم أفهمها حينها، ولا أذكرها الآن....الغريب في هذه النقاشات الحامية كان الأخ الأكبر يقف أحيانا مع خالي ضد زوجي، لكن حينما كان لا يعجبه رأي خالي فأنه يصمت ولا يختلق أي صدام معه...أحسست بمراوغة الأخ الأكبر الذي كان يسعى لتعاطف خالي بأي شكل..بينما أنا أحسست بشيء من النفور من موقف زوجي. ربما لأنه أخذ لا يؤمن بالله، أو لأنه وقف بوجه خالي الذي أحبه كثيرا، وأعتقد أن زوجي أحس بموقفي منه من خلال برود علاقتنا.

- لماذا لم تخبري خالك عن تحرش الأخ الأكبر بك..؟

سألت الجثة العجوز بصوت فيه تأنيب.

- لو كنت أخبرته لصارت فضيحة..فهو سيحدثه..وسيتدخل زوجي..لا أعرف..خفت..

- ألم يعتبر الأخ الأكبر سكوتك علامة رضا..وأنك كامرأة تتدللين..فأنت تريدين ذلك لكنك تحاولين أن تبرري لنفسك الخطيئة..؟

ردت الجثة العجوز عليها مستفسرة.

- لا أدري..لا أعتقد أني كنت أريد ذلك..لكن هل كنت أنا غبية لهذه الدرجة بحيث أعطيت انطباعا للأخ الأكبر بأني بدأت أميل إليه..؟ كيف..؟ ماذا بدر مني كي يفهم ذلك؟ هل فهم عدم إخباري لزوجي أو خالي هو علامة موافقة مني..؟ أو تراه لاحظ برود علاقتي مع زوجي؟ لا أدري..كل الذي أذكره أنه، ذات يوم، دخل عليّ في المطبخ وقال لي بثقة كبيرة: اسمعي، أنا أعرف أنك تحبينني مثلما أحبك، لكنك لا تريدين الاعتراف بذلك..؟ ثم هجم عليّ ليقبلني، فدفعته وأخذت سكين المطبخ الكبيرة مهددة إياه بطعنه إذا ما اقترب. أحسست أنه خاف وفوجئ من ردة فعلي، فخرج مصفر الوجه، وهو يهددني، ويصيح: ستكونين لي رغم أنفك.. ستكونين لي.

- ألم يسمع أطفالك ذلك..؟

سألت الجثة التي قرب الباب.

- لا.. ابني كان مع أبيه في المدينة.. وابنتي طفلة صغيرة لا تفهم..... لكن حين عاد زوجي وابني من المدينة، لاحظ أني

عصبية المزاج، وحين سألني انفجرت بعصبية عليه وأخذت أندب حظي العاثر مستذكرة المصائب التي مرت بنا وفقداني لأهلي....لكن في حياتي لم أجد شخصا وقحاً مثل الأخ الكبير..فعند المساء كدت أنفجر من الغضب، لأن الأخ الأكبر جاء وكأن شيئا لم يحدث. بل كان مرحاً وأخذ يداعب الأطفال ويلعب معهم..؟.

- وكيف تصرفت في ما بعد..؟

سألت الجثة القريبة من المحجبة.

- بعد ما جرى في المطبخ ذلك اليوم، صرت أتجنب البقاء في البيت وحدي، فصرتُ كلما يقرر زوجي النزول إلى المدينة أطلب النزول معه. أثاره هذا الأمر في البداية لكنه تعود عليه في ما بعد. المشكلة أني كنت أجبره على النزول إلى المدينة بالباص، بالرغم من أن ذلك يكلفنا الكثير من المال قياساً لميزانيتنا، لأني كنت أرفض المرور وسط المقبرة، لأني أخاف المقابر منذ الطفولة...بينما كان زوجي يتغزل بمقابر المسيحيين، وكان دائماً يقول لي انظري إلى هذه المقابر وكأنها حدائق وجنان يتمنّى المرء لو يموت لينام فيها، ولم يكن يعلم أنه فعلاً سيرقد فيها.....بعد أيام دخلت المطبخ فرأيت، صدفة، لوح خشب كبير نسبياً، كان يبدو وكأنه ضلع سرير قد تم تحطيمه،

وكان أحد أطرفه كان مليئاً بالمسامير البارزة...لم أولي الأمر أهمية، قلت مع نفسي ربما كان زوجي قد وضعه هنا ليستخدمه حطباً للموقد، فالجو بارد هنا في معظم فصول السنة، لاسيما الشتاء. لم يمر في ذهني بتاتاً بأن الأخ الأكبر كان قد خطط لقتل أخيه....

- وكيف قتله..؟

سألت الجثة الأنيقة بفضول.

- لا أدري كيف جرت الأمور.. ذات مساء كنا في البيت نعد العشاء. كان زوجي يلعب مع ابننا في الصالة وابنتنا نائمة في غرفة نومنا. سأل زوجي عن سبب تأخر أخيه عن المجيء ذلك المساء، فليس من عادته أن يتأخر عن العشاء، وأثناء حديثنا دخل الأخ الأكبر، وبدا أثر الشرب واضحاً على ملامحه. كان غاضباً وعصبياً ومحتقن الوجه أيضا....انقبض قلبي عند رؤيته..وتوجست شجاراً سيحصل..لكن لم أتوقع أن تكون هناك جريمة....قمت أنا إلى المطبخ، فسمعت من هناك زوجي يعاتبه على شربه ومجيئه إلى البيت وهو ثمل، وكان جواب الأخ الأكبر على عتاب زوجي إن صفعه على وجهه، ثم لم يكتف بذلك وإنما هجم على زوجي بالصفعات والضرب باليدين والرجلين..مع سباب وشتائم وتهديدات وإهانات..تجمد الدم

في عروقي..أحسست أنني لا أستطيع الوقوف..التفت..رأيت من بعيد تقريبا كيف نهض زوجي ليدافع عن نفسه أمام هذا الهجوم الجسدي العنيف من قبل أخيه.

- ألم تبادري لإيقاف الشجار..لاسيما وأن الأخ الأكبر يودك..؟

سألت الجثة العجوز بعتاب.

- لا..كنت منذهلة..أحس وكأني مشلولة.. كما أن الأمور جرت بسرعة خاطفة لا يمكن لعقل أن يتصورها..فقد دخل الأخ الأكبر المطبخ مسرعاً. لم ينظر إليّ أبداً..وكأني غير موجودة أمامه..أخذ الخشبة المدببة بالمسامير وهجم على زوجي. ضربه على رأسه وكتفه ضربات عدة. سقط زوجي مضرجاً بدمائه. ابني الذي كان حاضراً هناك أصابته ما يشبه اللوثة حينما شاهد أباه على الأرض والدم ينزف منه...أنا كنت أنظر للمشهد لكنه بدا لي وكأنه منفصل عني ..كأنه يجري في مكان آخر..ولم أحس بواقعيته إلا عندما هجم الأخ الأكبر عليّ فضربني على رأسي، لكني ملت قليلاً فجاءت الضربة أخف، ثم سحب سكيناً ليطعنني، فهربت إلى غرفة النوم حاملة ابني وأغلقتُ الباب... صرت أصرخ عالياً. فجاء الجيران، وهم عائلة ألمانية كانت تسكن في الطابق الأرضي. واتصلوا بالشرطة التي وصلت بعد دقائق قليلة فألقت القبض على الأخ الأكبر الذي ظل جالسا في

البيت....تأخرت سيارة الإسعاف كثيراً. نزف زوجي دماً كثيراً. تم نقلنا إلى المستشفى جميعاً. زوجي نقل إلى غرفة العناية المركزة... وفي المستشفى كان هناك شخص عراقي كردي يسكن مع طفليه في المدينة، وصادف وجوده في المستشفى لحظة وصولنا فأخذته الحمية الشرقية، فقام بمتابعة وضعنا، وقام ابنه بعملية الترجمة ومساعدتي في شرح الموقف للأطباء والشرطة....طلبت من هذا الشخص الاتصال بخالي الذي جاء فورا مع صديق له. كان زوجي في غيبوبة، لكنه لم يفق منها. مات زوجي... الأخ الأكبر اعتقلته الشرطة. أتوا له بمترجم رسمي كي يدون أقواله، ونقل إلى سجن الولاية التي نتبع إليها إداريا...بقي خالي عندنا لأسبوعين تقريبا..بعد الدفن.. كان خالي مستغربا من هذا المصير العجيب لزوجي. فقد خاض زوجي الحرب على جبهات القتال الأمامية مع إيران، وخرج منها سالما. ثم هاجر وتنقل بين البلدان ليصل إلى هنا، ويموت بهذه الطريقة البشعة على يد أخيه الأكبر؟؟

أطل الحارس آدم برأسه من زاوية النافذة فرأى كيف كانت الجثث تستمع إليها بفضول وتنظر برغم نظرات الموتى الجامدة إلى حواء هانوفر. كان الحارس آدم تحت النافذة يفكر بقصة قابيل وهابيل، ودور المرأة في أول جريمة عرفتها البشرية. سمع الجثة الأنيقة قرب النافذة تسأل:

- ماذا جرى بعد ذلك..؟

- لا شيء أكثر خطورة من جريمة قتل الإنسان..وأية جريمة. أخ يقتل أخاه....الغريب أن الأخ الأكبر أنكر في التحقيق أنه قتل أخاه، بل قيل لي إنه كان ينتحب عند التحقيق معه، وكان يضرب رأسه بالحائط، بل لقد ادّعى بأنه لم يكن في كامل وعيه، وأخذ يتصرف كمجنون، وطلب من المحققين أن يرى الأطفال ويقابلني ليعتذر لي..؟..ومرت الأيام والأسابيع. حضرت أكثر من جلسة تحقيق. وأخيرا تم الحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. حينها شعرت بالراحة النفسية. لكن بدأت معي قصة أخرى.

- ألم تقابيليه بعد ذلك..؟

سألت الجثة الأنيقة.

- لا.. كيف أقابل قاتل زوجي.. ولماذا..؟ المهم..الرجل العراقي الكردي الذي ساعدني في المستشفى، أخذ يتردد علينا ويقدم خدماته البريئة، وتوثقت علاقتنا معه، لاسيما وأنه عمق علاقته مع خالي، بعد أن جمعتهما السياسة....هذا الرجل أخذ يتقرب مني بشكل مريب، ويبدي إشارة المودة والحب.. لم أكن في الوضع النفسي الذي يتيح لي أن أستجيب لمثل هذه الأمور.. يئس الرجل مني، لاسيما وأن خالي قدم طلباً إلى دائرة الأجانب

في مدينته من أجل قبولي هناك، فانتقلت إلى المدينة التي يعيش فيها خالي....وفي المدينة الجديدة بدأت مرحلة جديدة أيضاً من حياتي. ولنشاط خالي السياسي كان كثيرا ما يحضر الندوات السياسية والاحتفالات التي تقام بالمناسبات، وكان يأخذني وأطفالي معه. تعرفت على العديد من العائلات العراقية، ومن بينها تعرفت على امرأة عراقية، كانت تبحث عن زوجة لخالها الوحيد الذي كان قد طلق زوجته الألمانية ويريد امرأة عراقية.... وبعد زيارات مقصودة، تقدمت مع زوجها إلى خالي طالبين يدي. خالي على طريقته المتحررة، سألني عن رأيي موضحا لي أنه يعرف الرجل وأنه إنسان طيب ومن عائلة طيبة، ناهيك إلى أني ما زلت في عز شبابي وأمامي سنوات طويلة في الغربة وتربية الأطفال، وطلب مني أن أقابل الخطيب شخصيا وأتحدث معه وأقرر. وفعلا قابلته وتحدثنا فليلا، وأعجبني.

صمتت الجثة حواء هانوفر عن الحديث للحظات، ثم واصلت بصوت رقيق:

- لماذا تبتسمون..؟ من خلال نظراتكم الجامدة أشعر أنكم تستغربون صراحتي. الموتى لا يكذبون..أنتم تعرفون ذلك.. لقد عبرنا من تلك الضفة حيث الكذب والنفاق والحقد والأقنعة التي من صفات البشر. نحن لسنا بشرا، نحن جثث، مجرد أموات، أليس كذلك؟

قاطعتها الجثة الأنيقة قائلة:

- يبدو أن قصتك لن تنتهي. كل واحدة منا تريد أن تقص حكايتها مع الحياة، والليل ليس طويلاً لكل حكاياتنا، فاختصري رجاءً. صباحاً لن يكون في مقدورنا أن نجتمع هكذا. لا نعرف أين سنكون في الليلة القادمة.

فوجئت جثة حواء هانوفر بهذه المقاطعة الحادة، صمتت للحظة ثم قالت:

- لن أطيل عليكم. سأختصر جهد الإمكان. مع زوجي الثاني كانت أجمل سنوات حياتي. إنه إنسان متواضع جداً. طيب جداً. يعمل في إحدى المصانع التي تجهز معامل السيارات بالقطع البلاستيكية. كنا نعيش في مدينة صغيرة جدا أشبه بقرية، قريبا من مدينة هانوفر..كنا في عزلة عن العالم. ليست لدينا أية صلة بالعالم إلا من خلال التلفزيون والأفلام. وهناك ولدت ابنيّ. وأقول الحق إن زوجي الثاني كان نعم المربي بالنسبة لابني البكر وابنتي.....

- وما الذي جاء بك إلى هذه المتاهة..إلى بغداد..؟

سألت الجثة العجوز بمرارة.

- كنا نتابع أخبار العراق من خلال شاشة التلفزيون. وبالرغم من أن زوجي يكره السياسة إلا أننا كنا نجد أنفسنا ننفعل لأية أخبار

تخص العراق، إلى أن جاء الأميركان وأزاحوا الطاغية. لكن الموت والقتل لم يرحلا برحيله؟...كنت أتمنى لو أن أبي وأمي عاشا لحظة سقوط تمثاله في ساحة الفردوس..المهم، كنا نسمع بالقرارات الجديدة بإعادة الأملاك لأصحابها من خلال شاشة التلفزيون، لذلك حثتني إحدى جاراتي العراقيات لتقديم معاملة استرجاع أملاكنا المصادرة، كما أردت أن أحصل على الوثائق العراقية كالجنسية وجواز السفر...لذلك أخبرت زوجي بأنني أريد السفر إلى بغداد.عارض أول الأمر لكنه رضخ تحت إلحاحي. واليوم كنت ذاهبة لتقديم معاملتي إلى هيئة الشهداء، كنا معاً كما أعتقد. لم أذكر شيئا سوى ألم خفيف في عنقي، ولم أعد أذكر شيئا. هنا أفقت معكم. وعرفت أننا متنا. نحن أموات أليس كذلك..؟

- نعم..نحن أمـوات..

قالت الجثة العجوز ذلك. هيمن صمت للحظات على الجميع، قطعه صوت الجثة التي قرب الباب التي قالت:

- سأحدثكم عن قصتي أنا. لا أدري إن كانت ستثيركم مثلما أثارتكم قصة حواء هانوفر.

فقاطعتها جثة المرأة المحجبة سائلة حواء هانوفر:

- وماذا عن الأخ الأكبر قاتل زوجك الأول؟.

صمت الجميع للحظات وكأنهم كانوا يريدون فعلاً معرفة مصير القاتل. فأجابت حواء هانوفر بصوت محايد لا أثر فيه للحقد:

- هل تصدقون أنه تم الإفراج عنه من السجن لحسن السيرة والسلوك، كما مُنح حق اللجوء السياسي في ألمانيا؟..

- ألم يتصل بك..؟

سألت الجثة العجوز.

- خلال سنوات سجنه كان يبعث لي الرسائل عن طريق خالي الذي كان قد أجابه مرة بأنني تزوجت وبدأت حياة جديدة وأن عليه أن يبتعد عني، فأصرّ بأنه يريد أن يرى أبناء أخيه ويريد أن يربيهم، فأخبره خالي بأن المحاكم الألمانية لا تمنحه هذا الحق أبداً كونه قاتل أبيهم. طبعاً زوجي لم يعلم بهذه المراسلات إلا بعد سنوات، وبالصدفة حينما كان خالي في زيارة لنا ودار الحديث عن مستقبل الأولاد، بل أخبرني خالي بأنه سمع بزواجه من امرأة من شرق آسيا، ويعيش حالياً في جنوب ألمانيا.

سكتت حواء هانوفر. فاستغلت الجثة التي قرب الباب لحظة السكوت وقالت:

- سأروي لكم قصتي.

التفتت الجثة العجوز إليها وقالت:

- يا ابنتي أنت ما زلت صغيرة. ما الذي نجده في قصة حياتك من المآسي، أكبر مأساة في حياتك هو موتك بهذا العمر، فأنت لم تستمتعي بالحياة بعد.

سكتت جثة الفتاة الأنيقة قليلا لكنها قالت بسخرية:

- لو تعرفين قصتي ما علقت عليها قبل أن تسمعيها يا جدتي.

ارتسمت الدهشة على وجه الجثة العجوز لكلامها وقالت:

- هاتي ما عندك يا ابنتي.

نظرت جثة الفتاة إلى بقية الجثث وكأنها تشجعت ، ثم بدأت بسرد حكايتها.

كان الحارس آدم يستمع وكأنه في ليس حارس المشرحة، وإنما مشاهد أو مستمع لقصص مذهلة في مآسيها..وكان يحس بأن هذه الجثث ربما تخلصت من آلام الحياة بموتها..وكان يحسّ بشوق لسماع قصة الجثة الأنيقة والفتية.

(8)

فضول الموتى

في تلك اللحظات، وقبل أن تبدأ الجثة الأنيقة بسرد حكايتها سمع الحارس آدم حركة في قاعة الثلاجات، وكأنه رفس أقدام على البوابات التي تحفظ الجثث. وبالرغم من أن الحارس آدم قد تقرفص على الأرض بحيث لا يمكن للجثث الموجودة في قاعة المشرحة أن تنتبه لوجوده وهو يستمع لحكاياتها، فأنه لم يكن بمقدوره عبور تلك المسافة حتى قاعة الثلاجات ليعرف سر هذه الضجة.

فجأة تعالت الضجة القادمة من قاعة الثلاجات بما يشبه فتح لأبواب الثلاجات وسحب الأسرة التي ترقد الجثث عليها. كما أحس بحركة قادمة من قاعة التشريح، وكأن الجثث الموجودة هناك قد انتبهت للضجة القادمة من قاعة الثلاجات أيضاً، لذلك نزلت من أسرتها المتنقلة لفتح الباب أو للنظر من النافذة.

لم يستطع الحارس آدم أن يتحمل ضغط الخوف في أعماقه، فتحرك قليلاً من تحت نافذة قاعة التشريح، زاحفاً إلى الوراء، وما أن ابتعد عن

النافذة حتى قام، واتجه راكضاً بسرعة خاطفة إلى غرفته، فدخلها وأغلق الباب خلفه. وقف عند الباب من الداخل يتنصت لأي حركة تأتي من الممر.

سمع باب قاعة التشريح يُفتح، عرف أن الجثث قامت من مكانها لتستوضح الضجة، ثم سمع وقع خطواتها يتجه نحو غرفته. بدأت الخطوات تقترب باتجاهه. توقفت عند باب غرفته.

كان آدم مختنق الأنفاس عند الباب من الداخل. سأل نفسه: لماذا جاءت إليه..؟. تطلع من البؤبؤ الزجاجي الموجود بمستوى النظر على الباب، وجد وجوه الجثث ملتفتة إلى جهة قاعة الثلاجات وكأنها انتبهت إلى أن الصوت يأتي من هناك، فتوجهت نحو جهة الصوت، وهكذا اختفت وجوه الجثث من أمام نظر الحارس آدم. ثم ابتعدت الخطوات متجهة نحو جهة قاعة التشريح وقاعة الثلاجات.

فجأة سمع وقع خطوات تأتي من جهة الدرج النازل من الطابق الأرضي، وضجة تبدو لأكثر من شخص. بدأ وقع الخطوات في الممر يتعالى. اقتربت الخطوات من غرفته ووقفت عنده، ثم سمع طرقا على الباب وصوت مساعد الطبيب الخفر وهو يناديه:

- آدم .. آدم .. استيقظ

حدق من البؤبؤ الزجاجي فلمح وجه مساعد الطبيب مشوها وبعيدا، وخلفه وجه الطبيب الخفر فتأكد من أن الموجودين ليسوا بجثث وإنما هم أحياء، ففتح الباب.

كان طبيب الخفر ومساعده وثلاثة من الرجال المسلحين الذين يبدو من ملابسهم بأنهم من رجال الحرس الوطني يقفون أمام باب الغرفة. ارتبك الحارس آدم، أحسّ أن شيئاً ما ليس على ما يرام. ما أن فتح الباب حتى سأله الطبيب الخفر:

- آدم.. هل رأيت أو سمعت شيئاً غير اعتيادي هنا في الممر؟

ارتبك الحارس آدم أكثر وخاف أن يروي ما رآه وما سمعه، فصمت ولم يرد. فواصل الطبيب وهو يتجه في عمق الممر:

- الإخوان من الحرس الوطني يقولون إنهم رأوا جثثا تمشي على الجسر، ويعتقدون أنها هربت من المشرحة لأنها كانت تبدو ممزقة، أي أجساد بشرية ممزقة..فهل رأيت أو سمعت شيئاً غير طبيعي..؟..

ارتعب الحارس آدم من قول الطبيب. كان الآخرون يحدقون في وجهه، وكأنهم ينتظرون نطق الحكم في محكمة. انتبه إلى أن رجال الحرس الوطني، بل حتى الطبيب الخفر ومساعده، يتميزون بأثر للخياطة عند عنقهم التي لم تستطع القمصان أن تغطيها:

- أنا شاهدت الجثث التي وصلت اليوم، وهي موجودة في قاعة التشريح.

تحركت المجموعة نحو قاعة التشريح للتأكد..الحارس آدم تبع الطبيب، بل وتجاوزه للوصول إلى قاعة التشريح،باعتباره حارس

المشرحة، وحارس الجثث، فتبعه الجميع. وحينما وصلوا إلى قاعة التشريح توقفوا. وقبل أن يدخلوا القاعة قال أحد رجال الحرس الوطني :

- يا جماعة.. أنا أنتظر هنا، فأنا بصراحة لا أحب رؤية الجثث في قاعة التشريح..

كان الحارس آدم مرتبكا وهو يفتح لهم باب القاعة، داخلا قاعة التشريح حيث كانت الجثث كلها ممدة على الأسرة النقالة، تفوح منها رائحة الموت الباردة والمرعبة.

وقف الطبيب الخفر ومساعده ورجلا الحرس الوطني وخلفهم الحارس آدم للحظات عن مدخل القاعة، تأملوا القاعة بنظرة سريعة، ثم خرجوا منها متجهين بسرعة نحو الطابق الأرضي وكأنهم يستعجلون مغادرة هذا الطابق المخيف، بينما كان رجال الحرس الوطني ينظرون إلى الحارس آدم نظرات مريبة وكأنهم يحاولون معرفة سر هذا الرجل الذي يعيش مع الجثث في الطابق نفسه.

صعد الطبيب الخفر ومساعده والرجال المسلحون السلمّ إلى الطابق الأرضي. بقيَ الحارس آدم عند أسفل السلمّ. نظر إلى الممر نظرة خوف متفحصة، ثم أسرع الخطى إلى غرفته، فدخلها ثم أغلق الباب خلفه.

بقيَ الحارس آدم واقفا عند الباب من الداخل. فكر بما حدث وسأل نفسه عن معنى رؤية جثث تمشي على الجسر..؟ الجثث التي نُقلت للمشرحة اليوم ما زالت موجودة في قاعة التشريح، وهي لنساء فقط.

الطبيب الخفر لم يحدد جنس الجثث..؟ لم يوضح إن كانت الجثث لرجال أو نساء؟ فجأة برقت في ذهنه فكرة: ربما الجثث التي شاهدها رجال الحرس الوطني لا تعود لضحايا الانفجار هذا اليوم، وإنما هي من الجثث المجهولة المتروكة في الثلاجات وهي بالعشرات..؟ كما أنه سمع ضجة تأتي من قاعة الثلاجات..أيكون أن تلك الجثث هربت..؟..شعر بالرعب من هذه الفكرة، كيف خرجت تلك الجثث من الثلاجات..؟ وإلى أين تريد الذهاب..؟ وكيف خرجت من المشرحة..؟ .

خطا بضع خطوات داخل الغرفة ثم جلس على الصوفة الجلدية. وضع رأسه بين يديه وهو يحدق في أرضية الغرفة، متأملا، كل ما جرى له اليوم..سأل نفسه: ما معنى كل هذا..؟. فكر مع نفسه، لقد عاش الكثير من الصراعات الروحية والفكرية سابقا، وتداخلت عنده حدود المعقول واللامعقول، والخيال والواقع، لكنه لم يمر بمثل ما مر به الليلة..فهو لا يعرف الآن بالضبط ما يجري، هل ما يراه ويسمعه هو واقع أو رؤى روحية ونفسية هي نتاج عقله المتوتر وصراعاته الداخلية..؟ كيف للجثث أن تتحدث بشكل طبيعي وكأن أصحابها أحياء ..؟ وكيف للجثث أن تمشي في الممر..؟ وماذا تريد منه..؟ لماذا تناديه..؟.

ربما ما سمعه من حواء هانوفر هو من شطحاته النفسية خلال بحثه المحموم عن معنى الحياة، وسعيه لإيجاد سيرة ذاتية لأصحاب الجثث، وبالتالي فإن تفكيره هيأ له هذا التصور وهذه السيرة..؟ لو كان الأمر كذلك، فما معنى نزول الطبيب الخفر والمساعد مع رجال الحرس الوطني للتأكد

من وجود الجثث..؟ ولمن، يا تُرى، تلك الجثث التي لمحها رجال الحرس وهي تعبر الجسر..؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يوقف رجال الحرس الوطني تلك الجثث الهاربة من المشرحة..؟ بل هل كان هناك، يا تُرى، طبيب ومساعد ورجال حرس وطني أساسا..؟ أحقا طرقَ البابَ أحدٌ..؟ أخرج هو إليهم، وذهب معهم إلى قاعة التشريح حقاً..؟

ظل الحارس آدم يسبح عابراً أمواج أفكاره المتلاطمة بصعوبة. لم يجد ثمة ساحلاً قريباً. الأفق مفتوح. لكن كيف له أن يتأكد من حقيقة ما جرى..؟ ليس أمامه سوى أن يذهب إلى قاعة التشريح مرة أخرى.. وكذلك يذهب أيضا إلى قاعة الثلاجات ليتأكد من الضجة التي سمعها حينما كان في الممر يتنصت للجثث.

لا يعرف من أين جاءته الجرأة على اتخاذ مثل هذا القرار. نهض متجها إلى الباب. توقف متلفتاً في الغرفة، ثم فتح الباب بهدوء، لكنه توقف قبل أن يخرج مستمعا لما يجري في الممر. لم يسمع شيئا. خرج بحذر شديد. اتجه متسللاً نحو قاعة التشريح. سمع صوت إحدى الجثث تتحدث. شعر بتقلص في عضلاته..توقف عن المشي. جلس ثانية على الأرض، ثم بدأ كالمرة السابقة يزحف منبطحاً على الأرض متجها نحو قاعة التشريح.

حينما وصل إلى أسفل النافذة التي تطل على الممر قرب باب قاعة التشريح عرف أن المتحدثة هي الجثة الأنيقة التي على السرير النقال الذي قرب النافذة، والتي كانت تشاكس حواء هانوفر، ويبدو أنها كانت قد بدأت حكايتها، فالتقط ما وصل إليه منها.

(9)

حـــواء الـبـغـــدادي

- .. وكما قلت لكم فأنا متأكدة من أنكم لا تعرفونني من ناحية الشكل، لكن ربما سمعتم باسمي. أنا حواء البغدادي، المذيعة التي أقدم برنامج ما يطلبه المستمعون من إذاعة الفردوس.. البرنامج الذي يقدم يوميا لمدة ساعتين. أبث خلاله أنواع الأغاني التي يطلبها المتصلون، كما استضيف المطربين والمطربات وأتابع فيه أخبار الفنانين. طبعا أنا لم أدرس الإعلام، وليس لدي سوى شهادة المتوسطة.

- وما الذي جاء بك إلى هذه المهنة..؟

سألتها الجثة العجوز بنبرة من تعطف عليها.

- هذه قصة طويلة يا جدتي..عرفت أني من عائلة محترمة..

- عرفتِ..؟ ألم تعرفي ذلك..ثم عرفته..؟

سألتها الجثة المحجبة.

- لا..لم أكن أعرف ذلك إلا قبل فترة قليلة....

- هل هي حزورة..؟أخبرينا يا ابنتي..

سألت الجثة العجوز بتعاطف.

- أبي وخالي استشهدا في زمن النظام المقبور كما نسميه الآن.. كنت حينها طفلة رضيعة. أمي أخبرتني قبل موتها بأن أبي وخالي كانا معارضين للنظام. خالي مات تحت التعذيب وأبي أعتقل ولم يعد إلينا قط. بعد سقوط النظام ذهبت أمي لتتفقد أسماء الشهداء والسجناء والمفقودين، فوجدت اسمه في قائمة المعدومين في سجن أبو غريب.....لا أدري كيف أتحدث لكم عن أمي، لأن الأم مقدسة مهما فعلت، لكني الآن أستطيع أن أتحدث عنها بشكل صريح...فأنا ميتة..وهي ميتة.. لقد كانت أمي في ريعان الشباب حينما أعتقل أبي، ولأنها كانت بلا مورد، لذلك عملت أمي منظفة في أحد المستشفيات..لا أذكر من طفولتي ما هو قبل السادسة من عمري، على الرغم من أن البعض يدعي بأنه يستذكر أشياء من حياته حينما كان في الثالثة...أنا لا أتذكر إلا أشياء قليلة من طفولتي، لكن هذه الأشياء تكاد تنبض بالحياة. مثلا، أتذكر أني استيقظت من نومي ذات ليلة فوجدت أن أمي تتصارع مع أحدهم في سريرها وهي تحت الغطاء. خفت أول الأمر، لكني سمعتها بعد ذلك تتلفظ ببعض الكلمات التي حتى وأنا في تلك الفترة من العمر كنت

أعتبرها معيبة. كانت تتحدث بكلمات الحب مع أحدهم. ثم أطلّ من تحت الغطاء رأس رجل أشبه برأس الحصان.

- رأس الحصان..؟

قالت الجثة التي قرب الباب باستغراب.

- نعم..كان رأسه كبيراً جداً..وفكه عريض وطويل..كالحصان تماماً..المهم.. حضر هذا الرجل أكثر من مرة إلى بيتنا، وكانت أمي حينها تعطيني بعض الحلوى، أو كان هذا الرجل يعطينا نقوداً للذهاب إلى الدكان القريب كي أشتري الحلوى وحينما كنت أرجع إلى البيت أجد أن الباب مقفل من الداخل فأظل أنتظر إلى حين خروج ذلك الرجل، ثم أخذت وجوه الرجال تتكرر..

صمت الجميع. واستمر صمت حواء البغدادي أيضاً..وأخيرا واصلت حديثها:

- بعد فترة صارت أمي تعمل كبيرة للمنظفات في إحدى المستشفيات. أحيانا كانت تأخذني إلى هناك، فكنت أرى هناك بعض وجوه الرجال التي يزورونها في البيت أيضا، وكان بعضهم يداعبني أو يمزح معي حينما يراني هناك.....حين صار عمري ثمانية أعوام، صرت أقضي معظم وقتي مع أمي في المستشفى، إذ كنت أعود من المدرسة لأذهب إلى المستشفى

حينما تكون في الفترة المسائية. وهناك بدأت أتعرف على عالم الرجال وأنا في تلك الفترة من العمر. كنت أدخل إلى بعض غرف العاملين هناك بحرية....أحيانا كنت أنام في المستشفى مع أمي حينما يكون لديها واجب ليلي هناك. ويبدو أن أمي خلال هذه السنوات التي قضتها في المستشفى قد عززت وضعها الوظيفي جيداً، لأنها كانت تتصرف بحرية ودونما خوف من أحد، ولم أكن أعرف حينها السبب إلا حينما كبرت وفهمت بأنها كانت تنام مع جميع الرجال العاملين في المستشفى.....بعدما كبرت، وبدأت أفهم هذه الأمور، صرت أسأل نفسي أحياناً: ربما أنا لستُ ابنة أمي..؟ ما من أم تتقبل هذه الوضعية لابنتها..؟ لقد كانت قاسية جداً معي، بل إنها كانت ترى بعض العاملين معها ينظرون إليّ نظرات مليئة بالرغبة الجنسية، بينما كانت هي لا تعير للأمر أي اهتمام، بل سمعتها تقول لأحدهم ضاحكة بأني ما زلت صغيرة وعليه أن يصبر. هل كانت أمي امرأة ساقطة..؟ هل كانت قوادة..؟ نعم.. لكني حينها لم أعرف ذلك.

صمتت حواء البغدادي للحظات، فسألتها العجوز:

- وأنت.. كيف عشت وسط هذا الجو..؟

صمت حواء البغدادي للحظات ثم أجابت:

- حينما كنت في الحادية عشرة من عمري، صادقتْ أمي رجلاً وسيماً. أخذ هذا الرجل يزورنا في البيت وينام في غرفتها بشكل دائم.. ثم صار يعيش معنا بشكل دائم.. لم تكن قد تزوجته، لكنه صار رب العائلة.....هذا الرجل استغل ذات يوم غياب أمي، فحاصرني في البيت وأخذ يحضنني ويقبلني... لا أريد أن أجعل من نفسي ضحية، فقد أعجبني الأمر، لكني كنت أخاف من أمي، لأنها لو عرفت فإنها ستتشاجر معه وسيكذبني هو، وتنتهي علاقتها معه وينقلب الأمر عليّ... ومن جانب آخر، فإني إذا لم أخبرها وتكتشف الأمر فسيتحول الأمر إلى كارثة. المهم، عزمت أن أخبرها لكن دون كل التفاصيل.

- وهل أخبرتها..؟

سألت الجثة قرب الباب.

- نعم أخبرتها..لكن هل تصدقون أنها لم تتأثر بتاتاً حينما أخبرتها..؟ بل كنت أنوي أن لا أروي كل شيء بالتفاصيل، لكني حينما وجدتها لم تتأثر أخبرتها بكل شيء وبأدق التفاصيل التي جرت معي...حينها نظرت إليّ بتوسل ثم قالت: أنا أحبه، ولا أريده أن يغادر البيت.. لا أستطيع العيش بدونه. أرجوك لا تتشاجري معه. اسكتي، ولا تخبري أحداً...هل تصدقون ذلك..؟..هل هذه هي أم...؟ لذلك أستغرب حينما أسمع

الشعراء يتحدثون عن الأمهات، وعن الجنة التي تحت أقدامهن..؟..ويبدو أن الرجل عرف بما جرى بيني وبين أمي، لا أدري كيف، إذ جاءني ذات يوم وأخذني بثقة كاملة إلى غرفة أمي، عراني من ثيابي، وعلى سرير أمي ضاجعني بالكامل ممزقا غشاء بكارتي.....كان تحدياً سافراً منه وحقارة لا توصف.. انتبهت امي لبعض قطرات الدم على شرشف السرير..استدعتني وحققت معي..فأخبرتها بكل شيء....لكن هذه المرة لم تسكت أمي، لا غضباً لتصرفه معي وإنما غيرة مني، إذ سمعتهما يتشاجران لأول مرة.... كانت تصرخ فيه بأنه لم يعد يحبها وإنما صار يحبني أنا... وكان هو يصرخ فيها بأنها يجب أن تقبل بما جرى ويجري، وأنني ساقطة مثلها، ولو لم يفتحني هو ويزيل بكارتي لأزالها شخص آخر، وأن عليها السكوت إذا أرادت أن يكون معها لأنه يعرف تاريخها كله ويعرف الرجال الذين ناموا معها، وأنها غبية، إذ عليها أن تستغلني وتستغل جمالي الباهر لتحسين أحوالهم المادية... بعد ذلك بقليل سمعتهما يضحكان.

- هل هذا يعني..؟

قالت الجثة المحجبة ولم تكمل الجملة، فأجابت حواء البغدادي مواصلة حديثها:

- نعم..هو ما تقصدينه.. فبعد ذاك اليوم والحديث الذي دار بعده تغيرت علاقة أمي معي. صارت أكثر حذراً، وأكثر ليناً، إلى أن

أخذت ذات يوم تسألني عن الرجال الذين يعملون معها في المستشفى، الذين نعرفهم معاً، وكيف يتصرفون معي..؟ ومن منهم الأكثر لطفاً معي..؟ ثم قالت لي بأن عليّ أن أشتري لنفسي ملابس جديدة وبعض قطع الذهب، وحينما سألتها ومن أين نأتي بالمال..؟ سكتت قليلا ثم قالت، وهي تتأملني بدقة: يمكنك أن تطلبي منهم ذلك. كوني لطيفة معهم قليلاً، طاوعيهم في ما يريدون..، ثم اطلبي مقابل ذلك بعض المال، وقولي لهم إنك تحتاجين ذلك، وإذا سألوك عني وهل أنا أدري بما تطلبين، قولي لهم بأني لا أعرف ذلك، وأنك لا تريدين أن أعرف أنا شيئاً عن ذلك؟ وفعلاً نجحت خطتها في الحصول على المال من خلالي....استمر الأمر لسنوات، إلى أن أنهيت الدراسة المتوسطة. كان جسدي قد نضج قبل الأوان بكثير، وصرت فتاة جميلة.....حينها فكرت أن أكمل الدراسة، وكنت أحب أن أكون ممثلة، إلا أن أمي وقفت ضد رغبتي، وطلبت مني البحث عن عمل، أي عمل... أخذت تخرج معي إلى الأسواق، لنجلس معاً في بعض الأماكن المختلطة، وإذا ما وجدت هناك من ينظر إليّ فأنها تنبهني لذلك وتطلب مني أن أبدي إشارات الاستجابة، وتفسح المجال لي وللآخرين من أجل التواصل وإقامة العلاقات.....ذات يوم كنا، أنا وهي، عند محل لبيع أنواع الجبن والعسل والمكسرات في منطقة (الكرادة داخل) لنشتري

عسلا لعشيقها، فدخل رجل في منتصف الأربعينات من العمر، وطلب ثلاثة كيلوات من لبن أربيل الشهير، وقنينة عسل وطلبات أخرى من الجوز والجبن، وكان يبدو مستعجلاً، إلا أن صاحب المحل الكردي قال له بلطف بأننا جئنا قبله...لحظتها قلت لصاحب المحل أن ينجز طلبه لأنه كما يبدو مستعجل، فشكرني جداً وأكّد بأنه مستعجل حقاً، فلديه ضيوف، ثم أخرج بطاقته الشخصية وقدمها ليً، مؤكداً بأنه سيكون سعيداً إذا ما قدم لنا أية خدمة، وأكد على الاتصال به. هكذا بدأت علاقتي بهذا الرجل، الحاج آدم العراقي، الذي يكبرني بثلاثين عاما....بعد أيام طلبت أمي مني الاتصال به، والسؤال عنه وعن ضيوفه واستدراجه، فهو كما كان واضحاً من ذوي النعمة، كما مكتوب على بطاقته بأنه تاجر استيراد وتصدير.. واتصلت به. لم يصدق هو اتصالي به..رحب بي بفرح كبير..ثم أخذنا الحديث شرقاً وغرباً.. وطبيعي أنا كنت أختلق القصص عن نفسي. المهم في الأمر هو..إذ عرفت أنه متزوج، وعائلته معه ببغداد، وأنه يتاجر بالأشياء التي تستخدم في المناسبات الحسينية كالسلاسل التي يستخدمها بعض رجال الشيعة في عاشوراء لضرب ظهورهم، والأقمشة التي تستخدم في الرايات وكتابة الشعارات، والمواد الغذائية التي تُستهلك في تلك الطقوس والولائم الحسينية، وأشياء أخرى لم يفصح عنها...في البداية فكرت أنه الرجل

الخطأ، فهو بلا شك متدين وغارق في الدين حتى أذنيه، ولم أكن أعرف أنه غارق في المتعة والفسق والفجور باسم الدين وتحت غطاء الدين.

- وهل كانت أمك تعرف بذلك..؟

سألت الجثة العجوز.

- هي التي كانت تخطط لحركاتي معه....طلب لقائي..فأخبرته بأني لا أستطيع الخروج وحدي..إلا بمعية أمي..ويبدو أن ذلك أعجبه..إلا أنه ألح فأخبرته أني سأخاطر من أجله..التقيت معه في أحد المطاعم الحديثة في منطقة الجادرية.. هناك عرفت، من خلال اهتمام أصحاب المطعم به، أنه معروف لديهم.. كانت أمي قبل ذهابي فرحة جداً، ويبدو أنها حدثت عشيقها عن ذلك، لأنه كان ينظر لي وأن أستعد للخروج بعين غيورة لكنه لم يقل شيئاً، ولم يسأل.....ذهبت بالتاكسي إلى هناك، وفي تلك الأمسية تحدث معي بصراحة شديدة بأنه يحبني، ويود الارتباط معي، لكن ليس بشكل رسمي، لأنه لا يستطيع ذلك علانية، وأنه سيدللني وسيغرقني بالمال والهدايا والثياب إذا ما وافقت على أن تكون علاقتي معه سرية. في تلك الأمسية نقدني خمسمائة دولار.....كانت أمي تتصل كل ربع ساعة سائلة أين أنا..؟ وأنا أتحجج بأني عند صديقتي، وأني سأعود قريباً... كان هذا ضمن

اتفاقنا ولعبتنا مع الحاج آدم العراقي، فبعد كل اتصال كان هو يزداد حرارة وإعجاباً وتعلقاً، مقدراً كذبي من أجل البقاء معه.... في نهاية تلك السهرة اتصل هاتفياً بسائقه، وطلب إيصالي إلى حيث أريد، وفعلاً، بعد دقائق جاء شاب مفتول العضلات إلى طاولتنا التي كانت في زاوية منفردة شبه معتمة وأبدى استعداده للخدمة، وهكذا أوصلني الشاب إلى منطقتي في بغداد الجديدة، لكني نزلت عند رأس شارعنا.. وليس أمام بابنا....في البيت كانت أمي وعشيقها ينتظران بلهفة... أمي أخذت حقيبتي مباشرة، وكأنها تعرف أنه منحني مالاً، فأخرجت الدولارات وأخذت تعدّها. عشيقها سألها عن كمية المبلغ، فقالت له لابأس لأول لقاء. ودخلا غرفتهما....في الأيام التالية كنت أتصل معه ويتصل معي عبر الهاتف، لكني كنت أتمنع عليه ولا أستجيب لمقابلته... طبعاً كل ذلك بتخطيط من أمي وعشيقها، إلى أن غضب الحاج آدم العراقي مني، عندها اتفقت معه على اللقاء. أرسل سائقه الذي انتظرني عند رأس شارعنا أيضا، لكنه اتصل وأنا في السيارة قائلا بأنه لا يستطيع الخروج علانية دائماً لأن وضعه حساس، لذلك سينتظرني في مكتبه الذي يقع في إحدى البنايات، فارتبكتُ، وطلبت من السائق إرجاعي إلى البيت.... حين دخلت البيت امتقع وجه أمي وعشيقها، فأخبرتهما بأنه يريدني الذهاب إليه في مكتبه. ظلت أمي وعشيقها صامتين.

دخلا غرفتهما وبعد دقائق خرجت أمي طالبة مني الذهاب معها إلى إحدى الطبيبات لرتق غشاء البكارة الممزق.....كانت عملية بسيطة. بقيت لأسبوع في البيت. لا أجيب على اتصالاته، إلى أن التأم كل شيء. عندها بدأت أجيب على اتصالاته، مؤكدة بأني بنت عائلة كريمة ومحافظة، وأن أمي وأهلي لا يقبلون بخروجي هكذا، وأني لولا حبي له لما خرجت معه، وأنا لستُ فتاة رخيصة يمكن شرائي بماله، وكل ما يمكن أن أستخدم من كلمات الشرف والعفة والتربية والأصول الدينية والاجتماعية.....كنت أحسه من خلال صوته يتلعثم ولا يستطيع سوى تقديم التبريرات والوعود بالحفاظ عليّ، وأن تحفظي هذا زاده حباً لي وتعلقاً وشوقاً، لأنه بهذا سيكون مطمئناً للفتاة التي يحبها ويريد أن يكون معها. طبعاً أمي كانت تستمع لكل ما يدور بيننا من كلام.....إلا أن العقل الشيطاني لأمي كان يخطط بشكل آخر..إذ اشترت لي جهاز هاتف محمول من النوعية الجيدة التي يمكن أن يسجل الأصوات. وطلبت مني أن أسجل كل ما يدور بيننا من أحاديث، بل وأكدت لي بأن أدفعه لمضاجعتي من خلال التلفون... وهكذا أخذت أتصل معه في أوقات مختلفة وأهيئ الجهاز للتسجيل، ثم أبدأ ببث شوقي وهيامي، ثم أسأله أين هو وماذا يفعل الآن، وماذا يلبس، وكان هو يجيب ثم يسألني الأسئلة نفسها، وشيئا فشيئا تبدأ المضاجعة

من خلال الهاتف...تكرر الأمر مرات..أخيرا طلبت أمي مني أن ألتقي معه، والذهاب إلى شقته وتركه يفعل كل شيء... وافقت على طلبه باللقاء معه في مكتبه. وكالعادة جاء سائقه إلى شارعنا وصعدت معه... في المكتب الكبير رأيت الجدران مليئة بالآيات القرآنية والشعارات الدينية.

قاطعتها الجثة المحجبة سائلة:

- ألم تقولي إنك ابنة لشهيد..وبنت أخت لشهيد..فكيف كنت تقبلين بهذا ..؟

صمتت حواء البغدادي للحظات، ثم أجابت:

- حينها لم أكن أعرف شيئاً عن أبي..أمي كانت وكأنها تريد أن تلغي ذاكرتها وذاكرتي..كانت تتهرب من الإجابة عن أصلي حينما أسألها عن أبي..فنشأت دون اهتمام واضح بذلك.. بالرغم من شوق غامض كان يدفعني لمعرفة أبي..

فقالت الجثة العجوز:

- دعوها تكمل الحديث عن مأساتها..واصلي يا ابنتي..

صمتت حواء البغدادي لحظة ثم واصلت:

- ذهبت إليه.. كان المكتب واسعاً جداً، لكنه كان في تلك الساعة خالياً من العاملين، ووجدت أنه هيأ كل شيء. كانت هناك طاولة

عليها صينية مليئة بأنواع اللحوم المشوية من كباب، دجاج، عرائس اللحم، والمقبلات المختلفة وأنواع العصائر والفواكه، وانتبهت إلى أنه لم تكن هناك مشروبات كحولية. كما كان قد أحضر لي هدايا من أفخر أنواع العطور، وحقيبة جلدية يدوية من الماركات الثمينة. أحسست في داخلي بتعاطف معه، وإحساس جميل بأنه يحبني فعلاً، وساءني أني أخطط مع والدتي وعشيقها للإساءة إليه وابتزازه...المهم..جلسنا في المكتب، ثم دعاني إلى المائدة فأكلنا، وشربنا من العصائر المتنوعة. كان حديثه كله يدور عن حبه لي، وسعادته في لقائي ذلك اليوم عند دكان صاحب الألبان الكردي. أخذ يضمني لصدره ويقبلني، وأخذ يسألني عن مذهبي....بعد ذلك أخذ يحدثني عن ظروفه، وأخلاقه، وأنه يريدني بالحلال، وأنه يستحرم حتى هذه الجلسة معي، ولكي نأخذ راحتنا عليّ أن أردد كلمات القبول بالمتعة معه على سنّة الله ورسوله، كي تكون هذه الجلسة مباركة. لم أفهم مقصده بالكامل. وبما أنه أبدى طلبه بهدوء ودونما اصطناع، فرددت ما أملى عليّ من كلام، لاسيما وان أمي قالت لي نفّذي ما يطلب منك. كان هناك صوت خافت لأناشيد حسينية يأتي من جهاز بعيد....لكني انتبهت إلى وجود غرفة خاصة في أقصى المكتب، فيها تلفزيون وأثاث من النوع الفاخر وأريكة يمكن فتحها لتتحول إلى سرير

نوم عريض. أخذني إلى هناك وأغلق جميع الأبواب الخارجية والداخلية. بدأ يضمني إلى صدره ويقبلني من فمي وصدري، وبدأ يعريني من ملابسي. كنت أتجاوب للمساته برغبتي لأني كنت مثارة أيضاً، وكذلك تنفيذاً لأوامر أمي.....إلى أن صرت بين يديه عارية بالكامل. ألقاني على السرير وجلس بين فخذي وبسرعة فائقة اخترقني. ارتسمت علامات الارتياح الممزوجة بالشهوة الجامحة حينما لاحظ دمي النازف من بين فخذي..لم يكن دمـاً كثيراً..لكن بالنسبة له كان دليلاً حاسماً على عذريتي.....لكني لا أعرف كيف تحول هذا الرجل المهذب والعاشق الولهان، فجأة، إلى وحش شرس...

- ما الذي حصل..؟

سألت الجثة التي قرب الباب مستفسرة بخوف. واصلت حواء البغدادي حديثها وكأنها لم تسمع السؤال، أو حديثها سيتضمن الجواب:

- شيء لم أفهمه لحد الآن... كان عاريا مثلي، لكنه فجأة ترك السرير لينزع الحزام عن بنطلونه الملقى جانباً وأخذ يضربني، ويصيح : يا عاهرة.. يا حقيرة. يا سافلة.. أنتن النساء..بنات حواء الحقيرات.. أخرجتمونا من الجنة..أنتن أصل البلاء والخطيئة..عاهرات.. كان يجلدني بقوة.. كنت أصرخ مرعوبة، أتوسل إليه أن يتركني ألبس ثيابي على الأقل.. كنت أبكي

وأصرخ، لكن ما من مجيب..... فجأة خرج مهرولاً خارج الغرفة، عارياً...خلال ذلك أرتديت ثيابي..كان جسدي يؤلمني..وجلدي قد تجرح وتورم من الضرب....بعد قليل عاد حاملاً قطعتين من السلاسل الملفوفة والمربوطة بمقبض خشبي. ألقى بواحدة إليّ وصاح فيّ.: كفري عن فسق أيتها الفاجرة.. وراح يضرب ظهره بشدة ويطلب مني أن أقلده... لكن حينما رآني قد أرتديت ثيابي أخذ يزمجر..فنزعت قميصي...وهكذا..بقينا على تلك الحالة لربع ساعة تقريباً، أحسست أن ظهري قد تمزق من أثر الضرب وبدأ جلدي ينسلخ عن مكانه....ثم فجأة ألقى بالسلسلة من يده، وأخذ الثانية من يدي. ثم احتضنني وأخذ يبكي.. أخذ يبكي بكاءً مراً كالمنكوب.. أحسستُ لحظتها أنه في عالم آخر، غير منتبه لوجودي. انسحبت من بين يديه.. تركني أغادر السرير. كان ينظر إليّ بعيون منكسرة.. جمعت ملابسي ، وأخذت ألبسها بسرعة..كان جلد ظهري قد تشقق..وكان الدم قد لوث فخذي. لبست ملابسي واتجهت للخروج... فجأة قام من مكانه وهو بكامل عريه.. اتجه لملابسه وأخرج من جيبه رزمة من الدولارات، ألقى بها إليّ .. لم أشأ أن آخذ أي شيء... كنت أفكر بالفرار فقط، لكنني تذكرت أمي وعشيقها فأخذت الرزمة... كان قميصي في بعض الأماكن قد بدأ يلتصق بظهري. لا أعرف كيف وصلت إلى باب

المكتب.. ثم إلى الشارع... أوقفت تاكسي وطلبت منه أن يقلني إلى منطقتنا.....حين وصلت الدار كنت على وشك أن يغمى عليّ. فتحت أمي الباب. ما أن رأتني حتى أدركت بأن شيئا ليس على ما يرام قد حدث... استمعا إليّ بهدوء...أمي أخذت رزمة الدولارات وعدتها مباشرة وبهدوء شديد..ثم قالت لعشيقها إن المبلغ ثلاثة آلاف دولار... نزعت عني ملابسي، وأدخلتني الحمام لأنظف حالي. وفرشت لي كي أنام، ثم أخذت جهاز هاتفي المحمول..

- وماذا حصل بعد ذلك..؟

سألت الجثة العجوز وكأنها من خلال خبرتها بالبشر كانت تدرك بأن هناك ما هو أشد هولاً سيأتي.. صمتت حواء البغدادي ثم واصلت:

- عند العصر اتصلت أمي به من خلال هاتفي المحمول.. أخذت تحدثه بهدوء في بداية الأمر.. كنت أسمعها تقول له بأني حدثتها بكل شيء، وبأدق التفاصيل، وأن عليه إصلاح الوضع، إن عليه أن يتزوجني.. وبدا أن الرجل كان قد رفض، أو أنه أنكر، لأن صوت أمي بدأ يتعالى ويهدد، ويخرج عن سكونه ودبلوماسيته المعتادة، ثم تعالى صوتها مهدداً: أنت لا تعرفنا جيداً، أولا: إن البنت قاصر فهي لم تبلغ الثامنة عشرة من العمر بعد. ثانيا: إنك اغتصبتها ويمكننا الآن أن نذهب إلى الشرطة لنبلغ عنك.....

ويبدو أن الحاج آدم العراقي..قد أغلق الهاتف من طرفه، لأن أمي بدأت تشتم بكلمات بذيئة لا يمكن أن يوجهها شخص لآخر بسهولة، لاسيما وأن أمي كانت تمثل دور الأم الشريفة والعفيفة....عند المساء طرق بابنا شخص ما، فتحت أمي وعشيقها الباب. سأل الشخص عني فقالت أمي إني نائمة، فقدم الرجل نفسه بأنه من طرف الحاج آدم العراقي، وقال إنه أرسل لي عشرة آلاف دولار تعويضاً، وإنه بذلك أوفى ما بذمته..... لم تقل أمي شيئاً محدداً.. أخذت رزمة الدولارات بصمت، لكنها علقت قبل أن يذهب الشخص المرسل قائلة: قل للحاج آدم العراقي إن أعراض الناس لا تباع وتشترى بهذا الرخص.. وأن عليه أن يدفع عشرة أضعاف هذا الذي أرسله، وإننا لن نسكت. سنخبر العشيرة، ليتحول الأمر إلى مسألة عشائرية..... نظر الشخص المرسل إلى أمي وعشيقها، وكأنه عرف مع من هو يتعامل، ثم علق بلهجة مبطنة بالتهديد: يبدو أنكم لا تعرفون من هو الحاج آدم العراقي. نصيحتي لكم.. اقبلوا بما أرسله، فهو كريم معكم، وإلا ستندمون على يوم ولادتكم.....حينها خرجت أمي عن طورها..لا أعرف لماذا..ربما لأن المال قد أغراها..فطمعت بأكثر من ذلك.. إذ صرخت في الرجل: هل تهددنا..؟ نحن أيضا نستطيع أن نهدد، بل وأي تهديد..... لم يعلق الرجل، وإنما ذهب بهدوء مثلما جاء، بينما أغلقت أمي

الباب وعـادت مع عشيقها يتدافعان من أجل عد رزمة الـدولارات..... مضى أسبوعان على الحادث، وذات مساء خرجت أمي وعشيقها من غرفتهما... ويبدو أن شراهتهما للمال لم تهدأ.. جلسا في الصالون. أخذت أمي الهاتف المحمول واتصلت بالحاج آدم العراقي، ويبدو أن الرجل أغلق التلفون في وجهها... حاولت ثانية فأغلق الهاتف أيضا، وفي المرة الثالثة يبدو أنه كان عصبيا لأني فهمت ذلك من نبرة كلام أمي التي بدأت تهدده قائلة:..يا حاج آدم.. نحن مر لحمنا.. لسنا ممن تأكل لحمهم وتلقيهم عظاماً... لدينا تسجيلات بصوتك وأنت تضاجع ابنتنا بالتليفون..كل شيء مسجل..وإذا لم تدفع عشرة أضعاف المبلغ الذي أرسلته سنبث هذه التسجيلات، ونفضحك يا خادم المواكب الحسينية، يا قائد العراق الجديد... لقد شاهدناك تروي مفتخرا عن تضحياتك، وسجنك، واستشهاد عائلتك، وهجرتك لسنوات إلى إيران وسورية، وتبرعاتك اليوم للمواكب الدينية، وللأيتام، وعن حزبك الذي سيقيم الجنة على الأرض. سنفضحك.. ونفضح ما فعلته.. هل تريد أن تسمع للتسجيلات كي تتأكد من ذلك....ويبدو أنه استمع لها لأنها تحدثت بشكل متواصل، وانتبه إلى تهديدها بأن هناك تسجيلاً حقيقياً له، لكنه لم يتحمل فأغلق التليفون، واستمرت أمي تصرخ فيه: لا تغلق التليفون في وجهي يا حقير.....كان هذا

الاتصال هو بداية الحرب الحقيقية بين أمي وعشيقها والحاج آدم العراقي.....في اليوم التالي، وعند فطور الصباح سمعنا طرقا على الباب. ذهبت أمي لتفتح الباب. سمعناها تتحدث بصوت عالٍ.. خرجت مع عشيق أمي فوجدنا الرجل الذي حمل المبلغ الأول وبيده كيس ملفوف، وكان يحاول تهدئة أمي قائلاً: يا حاجة، الحاج آدم العراقي لا يريد مشاكل، ويريد حل الأمور بالتي هي أحسن.. وها هو يرسل إليكم عشرين ألف دولار إضافة إلى العشرة التي أرسلها... أنت تعرفين أن أية امرأة اليوم يتم تزويجها بألفين أو ثلاثة آلاف دولار، بينما هو أرسل لكم لحد الآن ثلاثين ألف دولار. فقط هو يرجوكم إنهاء الموضوع بدون فضائح.....يبدو أن موقف الحاج آدم العراقي اللين أثار شهوة أمي في الابتزاز أكثر، فألقت خطبة روزخونية عن الشرف والعِرض، والنساء المحصنات، وشرف العراقيات الذي صار يباع ويشترى.. ظل السائق يستمع إليها بهدوء، ثم قال لأمي: اسمعيني جيدا. الحاج آدم العراقي سأل عنك جيداً. وعرف المستشفى التي تعملين فيها.. واتصل بإدارة المستشفى فحصل منهم على نسخة من ملفك.. ويعرف كل شيء عنك، وعن عشيقك..فلا ترفعي صوتك عاليا.. هو يريد إنهاء الموضوع بهدوء...ويبدو أن كلام الرجل أثار رعبها..في أن الحاج آدم العراقي حصل على ملفها..ومن يأسها كما يبدو لي

أخذت تتحدث بما يشبه الصراخ: هل تهددني بالحاج.. والله زمان.. في زمن المقبور الذي لا نذكر أسمه كان الفاسد واضحاً والمؤمن واضحاً.. اليوم الكل صاروا مؤمنين وحجاج بيت الله ومن ذوي اللحى... صرنا لا نعرف المؤمن الحقيقي من الفاسد المتدين... الكل اليوم يدعي التضحيات.. هل تعرف أن مسؤول الجيش الشعبي في شارعنا هذا أيام المقبور صار اليوم من الحجاج الجدد أيضاً... فلا تحدثني بلهجة التهديد.....لم يقل السائق شيئا. فقط نظر إلى أمي نظرة غريبة، ثم مضى صامتا.

- وكيف انتهت هذه المشكلة..؟

سألت العجوز بهدوء:

- في ذلك المساء سمعنا صوت نفير سيارات وجلبة في شارعنا.. فجأة سمعنا رفسا بالأرجل وطرقا عنيفا على بابنا. انفتح الباب بقوة ودخل أكثر من عشرة رجال مدججين بالأسلحة. وطوقوا الدار، ثم دخل ضابط برتبة ونجوم على كتفيه...أحسست برعشة باردة تشل جسدي ومشاعري، وكأنني أرى منظرا سينمائيا. أمي وعشيقها شلهم الخوف. لم أسمع الذي قالته أمي، لكني سمعت الضابط يجيب: إنكما متهمان بمساعدة الإرهابيين. وإنكما مشمولان بالمادة 4 إرهاب...ثم أمر بإلقاء القبض عليهما. توجه اثنان نحوي أيضا إلا إنه قال لهما: هذان

فقط. هي غير مشمولة بالأمر.....لا أجد الكلمات التي تعبر عن الحال التي صرتُ فيها. رأيتهم كيف يضربون أمي وعشيقها أمامي ضربا مبرحا.. كانت الدموع تسيل من عيني دونما بكاء.. كنتُ أنظر إلى المشهد وكأنه بعيد عني وغريب، مشهد أشبه بحلم غير واقعي.... كانت ثمة مشاعر متضاربة تجتاحني، مشاعر هي بين التشفي لأنها دمرت حياتي وأحالتني إلى عاهرة تباع وتشترى، وبين الإشفاق لأنها في كل الأحـوال أمي، ولا أعرف غيرها في هذا العالم.....بقيت وحدي في البيت. كنتُ تائهة لا أعرف ماذا أفعل... لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت وأنا في حالتي تلك.. كان الباب الخارجي ما زال مفتوحاً، وكأنني في حلم بعيد، رأيت الحاج آدم العراقي يدخل إلى باحة الدار يتبعه السائق. فجأة وقف وأشار إلى السائق بالخروج والانتظار عند الباب وعـدم السماح لأحد بالدخول.....كنت في الصالة أنظر إليه وهو يتقدم نحو الداخل. صار في الصالة. نظر إليّ بعتاب ممزوج بغضب. تلفّت حوله. اقترب مني. أخذني من يدي إلى غرفة النوم الجانبية. ألقاني على ظهري على سرير أمي. رفع ثوبي ونزع عني لباسي الداخلي. فك عن نفسه حزامه وسرواله، ثم أطبق علي داخلاً فيَّ بعنف شديد..... هل تصدقون أني في تلك اللحظات عرفت النشوة ووصلت الذروة لأول مرة، ووجدت نفسي

أصرخ فيه: أحبك.....لحظتها انتبهت إلى أنه سحب نفسه عند القذف، فلم يقذف بداخلي، وإنما لوثني ولوث الفراش... لم يقل شيئاً. تلفّت حوله. رأى جهاز هاتفي المحمول. أخذه. التفّت إليّ وبصق عليّ باحتقار شديد. وخرج.

قاطعتها الجثة المحجبة سائلة:

- وأمك..؟

- مسكينة أمي.. بعد مضي أسبوع على اعتقالها مع عشيقها، لكن خلال هذا الأسبوع تغيرت مسارات حياتي. لا أعرف ما الذي جرى لي... ربما تلك اللحظات من النشوة التي عرفتها في مضاجعة الحاج آدم العراقي الأخيرة قد غيرت من شخصيتي وكياني... أحسست بأنني صرت خفيفة.. لا مبالية.. ما يجري في العالم لم يعد يعني لي شيئا..وما سيأتي لا أفكر فيه قط.....ففي اليوم الثاني خرجت من البيت.. كان الجيران ينظرون إليّ ما بين متعاطف وبين غاضب. في منطقة شارع الربيعي التي كثيراً ما أتجول فيها، صادفت فريقاً إذاعياً يُجري مقابلات مع السابلة...الصحفي المسؤول ألحّ على أن يجري معي لقاءً، سألني عن علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة، وهل توجد فعلاً صداقة بدون أغراض أخرى..؟ أجبت بأني لا أعرف ذلك لأني لم أصادق أحداً... بعد ذلك دعاني ذلك الصحافي

إلى صحن من المثلجات الطيبة.. جلسنا معاً، وأخذ يبدي إعجابه بجمالي وبخفة دمي، وسألني عن عملي، فلما أجبته بأنه لا عمل لديّ، سألني مباشرة، وبشكل مفاجئ: لماذا لا تعملين مذيعة في الإذاعة أو التلفزيون.. ؟..ضحكت من كلامه وقلت: أنا لا خبرة لي في هذا المجال.....ضحك عالياً وعلّق: من له خبرة في هذا المجال..؟ هل تعرفين فلان الفلاني، المقدم المعروف في قناة الدولة الرسمية كان حلاقاً، وفلانة طبيبة بيطرية، وفلانة لم تنهِ الابتدائية، وفلان الفلاني المعروف كان لديه دكان لبيع الموبيلات.. كل الذين ترينهم في التلفزيون ليس لديهم أية علاقة بالإعلام..أنا نفسي خريج تجارة، الصدفة وحدها قادتني للعمل في الإذاعة. الأمر لا يحتاج إلى خبرة، الخبرة تأتي لاحقاً، الأساس هو الشكل المقبول وخفة الدم، وبعض التنازلات.....تحدث كثيرا. لم افهم مما قاله الكثير، لكني فهمت بأني مؤهلة بنجاح للعمل في مجال الإذاعة. في اليوم نفسه دعاني للذهاب معه إلى الإذاعة..أعجبتني الفكرة، وفعلا ذهبت معه إلى المحطة، ووجدت أن الأمر ليس بالصعب... أجرى لي اختباراً بسيطاً، ويبدو أنني لم أكن بالمستوى اللائق، لكنه برغم ذلك أصرّ على أنني جيدة، واتفقنا أن نلتقي في المساء.....استغربت من نفسي..لأني لم أتذكر أمي وعشيقها خلال ذلك اليوم.....وفي ذلك المساء التقيت

بالمذيع آدم السعيد. أخذني بسيارته إلى منطقة على القناة وفي زاوية مظلمة أوقف سيارته هناك. بدأ يحدثني عن إعجابه، وأخبرني بأنه سيرفعني إلى قمة النجاح، ثم بدأ يداعبني. لم أمانع، ومتى مانعت في حياتي أصلاً..؟ وفي السيارة عرّاني من ملابسي، وضاجعني... لا أدري لِمَ لم أشعر باللذة كتلك التي شعرت فيها مع الحاج آدم العراقي.....المهم..في اليوم التالي قدّمني آدم السعيد إلى المسؤول عن الإذاعة الذي أعجبته فوراً.. أقصد أعجبه جسدي.. فأصدر أمراً بتعيني وبمبلغ لا بأس به، وطلب من آدم السعيد أن يعدّ لي برنامج (ما يطلبه المستمعون) على أن يبث في الوقت الذهبي. وهكذا انطلقت حواء البغدادي إلى عالم الشهرة...الغريب أن آدم السعيد اختفى، وبعد أيام صادفته في ممر الإذاعة لكنه تجنبني، وحينما أوقفته لأسأله عن سبب هروبه مني قال لي مرتبكاً إن مسؤول الإذاعة يريدني له شخصياً، ورجاني أن لا أسيء له أمام المدير المسؤول..فهو الذي جاء بي إلى الإذاعة.. وهو الذي فتح لي أبواب الشهرة. وفعلاً كان البرنامج ناجحاً جداً، ولم يكن يحتاج لخبرة ومهارة فهو لا يعدو تلقياً لاتصالات المستمعين والإجابة على ثرثرتهم بشكل لبق ومحبب.

- لكن من أنت في حقيقتك..؟ صرت حواء البغدادي من خلال الإذاعة..فمن أنت..؟

سألت الجثة العجوز.

- أنا اسمي الحقيقي..حواء آدم كاشف الليل....وقد عرفت ذلك بعد خروج أمي من المعتقل..فبعد ثلاثة أسابيع، وعند المساء، حينما عدتُ، وجدت الباب مفتوحا. دخلت مسرعة فوجدت أمي ترقد على سريرها...لم تكن أمي بل شبح يحمل ملامح أمي. اقتربت منها. فتحت عينيها، رأتني، ثم بدأت الدموع تنهمر من عينيها.. مدّت يدين مرتعشتين نحوي لاحتضاني، فألقيت بنفسي محتضنة إياها، وأنا أبكي، وكأني اكتشفت أمي لأول مرة.....بعد أن شبعنا من البكاء سألتها عن عشيقها فنزلت دموعها وهي تقول: لقد مات تحت التعذيب..... ثم نظرت في البعيد، وكأنها ترى مشهداً بعيداً لا يراه سواها، وأخذت تتحدث وكأنها تهذي: كانوا يعذبوننا ويسألوننا عن الإرهابيين الذين نخفيهم في بيتنا، وعن الدول التي نتعاون معها، وعن كمية المبالغ التي استلمناها من دول الخليج..؟ لا يصدقون أننا لا علاقة لنا بكل هذا... نقسم لهم بالقرآن وبكل المقدسات، لكنهم كانوا يهزئون من قسمنا...اتهموني بأني أدرب النساء على الانتحار، وأنـي أردت اغتيال بعض الشخصيات السياسية الإسلامية الحاكمة من خلال إرسال الفتيات الجميلات إليهم.... حينها ارتعبت لأني اعتقدت أنهم سيأتون بك. كانوا يصرون على تهمهم لنا بالرغم من أنهم يعرفون أنها كاذبة.... بعد يومين من الضرب والشتم والسخرية،

عرفنا أننا لسنا في دائرة حكومية وإنما في مكتب ما....بعد ذلك، حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ جاء رجال آخرون، وأخذونا إلى مكان آخر، بدا مهجوراً وخالياً من أي إنسان. هناك عذبونا بشكل مرعب. أجبرونا على أن نعترف بأشياء لم تخطر على بال أحد. أنت تعرفين أننا لا نهتم بالسياسة، بينما سجلوا اعترافات لنا بأننا على علاقة بأشخاص ذكروا أسماءهم، لكننا لا نعرفهم.....سأروي كل شيء يا حواء..يا ابنتي..أنا سأرحل من هذه الدنيا..أعرف ذلك.. سأعترف لك بأشياء لا تعرفينها سابقاً. أريد أن أكّفر عن ذنوبي... لقد ظلمتك يا ابنتي. ظلمتك جداً. ولا أدري كيف سألاقي ربي وأنا محمّلة بكل هذه الـذنـوب.....أنـت لم تسأليني عن أبيك.. سأخبرك..وسأخبرك كيف سلكت هذا الطريق الذي عرفتني فيه..أنت يا ابنتي بنت رجل طيب..اسمه آدم كاشف الليل، وهو من عائلة متدينة ومعروفة، لكني لم أكن أحبه.. لقد زوجني أخي له لأنهما كانا صديقين.. كانا كلاهما من الملتزمين دينيا، ولم يكونا يستقران في مكان. كنت وحدي دائماً...بعد ولادتك بأشهر قليلة دخل رجل ما حياتي.. كان يتبعني أينما ذهبت، ويسمعني كلاماً لطيفاً عن جمالي، وهيامه وشوقه إليّ. لم أستجب أول الأمر، فأنا أيضا أنحدر من عائلة متدينة..، وبعد وفاة والديّ عشت مع أخي المتدين جداً، لكن هذا الرجل

الغريب يبدو كان يعرف وضعي، ووحدتي، وغياب زوجي وأخي الدائم عن البيت.. ولا أدري كيف استطاع أن يدخل إلى نفسي، ويشوش علي مشاعري وأفكاري....كنت أستغرب جرأته. كان لا يهاب أي شيء...ذات يوم شتائي تعرضت أنت لحمى. كان عليّ الذهاب إلى المستشفى.. رأيته يتبعني.. وفي المستشفى ساعدني جداً.. يبدو أنه كان معروفا لديهم، فقد أدخلني بدون الوقوف في الطابور، واهتموا جداً بفحصك.. بعدها أوصلني إلى البيت، وقبل أن يمضي قال إنه سيزورني الليلة في تمام الساعة العاشرة، وعليّ ترك الباب مفتوحا. هكذا ببساطة....لم أكن أعرف ما أفعل.. كنت خائفة. كنت ما بين رعبي من الخيانة وتلهفي لرغبتي الجنسية، في الساعة التاسعة أغلقت الباب ولم أفتحها... كنت في صراع مع نفسي، وقبل أن تكتمل العاشرة بدقيقتين فتحت الباب.. كنت حينها عند الباب حينما دخل مثل اللص إلى الدار. شلني الخوف وأفقدتني عقلي الرغبةُ.. أخذني مباشرة إلى غرفة النوم، وهناك على الأرض التي يغطيها السجاد ضاجعني.....لا أخفيك فلقد أحببته... صرت أنتظر وصوله ليلياً، ثم بدأ يسألني عن زوجي، عن أبيك، وأين هو ولماذا لا يأتي... كنت أختلق الأعذار بأنه يعمل في مدينة أخرى.. سألني كيف سيعرف أنه موجود..فقلت له بأني سأترك المصباح الخارجي فوق الباب مضاءً دلالة على عودته...

لم أكن أعرف بأن هذا الرجل هو ضابط أمن، وأنني كنت الطعم لكي يعتقل أباك وخالك. نعم. فقد تركت المصباح منيراً دلالة على وجود أبيك...وتحذيراً له بأن لا يأتي....وفي تلك الليلة، زارنا خالك أيضا، وعند منتصف الليل، سمعنا طرقاً شديداً على الباب.. حينما خرجت داهم البيت بدون استئذان عشرة من رجال الأمن... ألقوا القبض على أبيك وخالك، وحين خرجت مولولة أتبعهم في الشارع رأيت عشيقي يصعد سيارة الأمن معهم....وهكذا.. خالك مات في التعذيب، وأبوك يرقد في قبر جماعي، فهذا ما عرفته بعد سقوط النظام.....المهم...بعد ذلك بيوم تم اعتقالي أنا أيضاً، لكن عشيقي تدخل من أجل ألا أسجن. بقيت عندهم في المعتقل لأسبوعين. مرّ عليّ جميع الرجال هناك. حتى المنظف. كنت أنت معي أيضاً. كنتِ طفلة رضيعة. حينما خرجتُ من المعتقل كنتُ مرعوبة أن أفقدك أنت أيضا.. فكرت أن أقتل نفسي، لكن لمن أتركك..؟. بعد أسابيع عرفت أني حامل.. بعت كل ما أملك من أجل إجراء عملية إجهاض.. انتقلت إلى بغداد. فنحن في الأصل من الحلة.... الدنيا لا تخلو من الطيبين والأخيار...فالطبيبة التي أجرت لي عملية الإجهاض في العيادة تعاطفت معي، بعد أن رويت لها قصتي، ووجدت لي عملاً في المستشفى التي تعمل فيها نهاراً. الحياة يا ابنتي جعلتني أكفر بكل القيم و بالحب والأخلاق،

واجتاحتني رغبة في الانتقام من الرجال...نصيحتي لك يا ابنتي..لا تثقي بأحد.. أنا أخطأت بحق والدك وخالك...لم أصن نفسي، تبعت شهوتي، وجررت الموت على زوجي وأخي.. حطمت حياتي بنفسي، وحطمت حياتك أيضاً.. اغفري لي يا ابنتي قبل أن أموت. انتبهي لنفسك.. الأموال التي جنيتها عن طريقك تحت البلاطة التي تحت هذا السرير.اسمعي وصيتي يا ابنتي: لا تثقي بأحد.....كانت تلك وصيتها وآخر جملة قالتها في حياتها..قالت ذلك وارتعش وجهها وكأنها ترى شيئاً مرعباً.. وفجأة سكنت.

هيمن صمت على القاعة للحظات قطعه صوت الجثة العجوز وهي تسأل:

- وكيف عشت في ما بعد..؟

- لقد عشت كما يعيش الجميع..عشت في متاهتي وضياعي.... هل تصدقون إذا قلت لكم إنني إنسانة غريبة الأطوار..؟.لم أذرف دمعة واحدة بعد موت أمي.. اتصلت ببعض زملائي في العمل وبمدير الإذاعة وأخبرتهم بوفاة أمي..وفي الحال جاءوا جميعهم، وقاموا بكل الإجراءات اللازمة من نقل الجثة إلى المستشفى ومن ثم مراسيم الدفن. لم أقم مجلس الفاتحة، فليس لي أحد.. في الإذاعة جاء الزملاء وعزوني بالوفاة...

قررت بعدها الانتقام من الحاج آدم العراقي... مرّ أكثر من عام على وفاة أمي.. صرت معروفة ومشهورة.. وحصلت على لقب (معبودة الجماهير) تشبهاً بفيلم (معبودة الجماهير) لشادية وعبد الحليم حافظ...كما صرت العشيقة الرسمية لصاحب الإذاعة، ومن خلال عملي الإذاعي عرفت الكثير عما يدور من صراعات سياسية، وعرفت النفاق السياسي.. صاحب الإذاعة من طائفة أخرى.. وهو يكره الأحزاب الإسلامية التي تشكل الأكثرية.. عندما رويت له قصتي وقصة أمي قرر أن يساعدني بالانتقام لها... أخذ مني كل المعلومات عن الحاج آدم العراقي... بعد أيام جاء إلى غرفة التسجيل الإذاعي ومعه ثلاث فتيات،عرفتهن مباشرة، فواحدة منهن ممثلة شابة معروفة، وواحدة مذيعة في إحدى المحطات التلفزيونية والثالثة مقدمة برامج في محطة تلفزيونية أخرى....لم تمض سوى ساعات حتى عرفت منهن ما لا يمكنني معرفته وحدي خلال سنوات.. تحدثن عن أشياء بخصوص هؤلاء المسؤولين الجدد لا يمكن أن يصدقها العقل.. تحدثن عن لياليهن وسهراتهن في بيوت المسؤولين في المنطقة الخضراء، وعن شبكات الدعارة التي يحميها بعض الضباط من ذوي الرتب العالية في الأمن والداخلية، عن الأموال التي يحصلن عليها، وعن الأرباح التي يحصدنها من خلال وساطتهن لدى هؤلاء الضباط والشخصيات

الحكومية.....أي مستنقع إسلامي نعيش فيه..حينما سألتهن إن كن يعرفن شخصا اسمه الحاج آدم العراقي، فضحكن وقلن هذا الذي يتاجر بالمقدسات وبمشاعر الناس الدينية.. هن يطلقن عليه اسم (حجي متعة)، لأن لا يريد الزنى وأنه لا يكف عن زواج المتعة..حتى مع العاهرات....كل واحدة منهن تحدثت عنه بطريقتها لكن جميع قصصهن واحدة، إذ تزوجهن زواج متعة ودفع لهن مبالغ كبيرة، وقبلن بذلك.... رويت لهن قصتي معه، وما فعله بأمي وعشيقها.. استغربن، وأكدن بأنه لا يملك النفوذ الحكومي بحيث يقوم بالذي قام بفعله مع أمي وعشيقها... فهو يقدم الرشاوى للضباط والمسؤولين لتمرير صفقاته.. وقررن الاستفسار عن الموضوع...

- وهل عرفن سره..؟

سألت الجثة المحجبة.

- نعم..بعد أيام دعونني إلى سهرة في بيت أحد المسئولين في المنطقة الخضراء، فسألتهن عن علاقتهن بعشيقي صاحب المحطة فضحكن وأخبرنني بأنه إنسان محبوب جداً، وقد ساعدهن جميعا في بداية مشوارهن الفني، وقد كنّ جميعهن عشيقاته، وهن الآن يحاولن رد الجميل له من خلال تسجيل ما يدور في الحفلات، وتصوير ما يمكن تصويره أيضاً عن طريق

أجهزة الهاتف المحمول، وهو يقوم بعد ذلك بتحويل هذه التسجيلات على أقراص، ولا نعرف ماذا يفعل بها، فقد سألناه ذات مرة عن ذلك فأجاب بأنه يحتفظ بهذه التسجيلات للأيام السود، إذا ما أرادوا البطش به.....إحداهن قالت إنها سمعت بأنه يبيع تلك التسجيلات والمعلومات للسفارات الأجنبية، أو للأميركية بالتحديد. كنت خائفة بالذهاب معهن، لكني كنت أريد الانتقام من الحاج آدم العراقي.

- وهل انتقمت منه..؟

سألتها الجثة حواء هانوفر التي لم تشارك بالأسئلة.

- سيأتيك خبره..ففي أحد بيوت القادة العسكريين كانت أول سهرة لي. كان هناك ثلاثة رجال، راعي السهرة وضابطان كبيران جداً، أحدهما يظهر دائما في التلفزيون... خلال تلك الجلسة أحسستُ بأني أعجبت راعي السهرة، الذي شكر صديقاتي لأنهن أحضرنني معهن.. أعطاني أرقام هواتفه الخاصة وأخذ رقم تليفوني.. في نهاية السهرة أعطونا خمسمائة دولار لكل واحدة منا.....لم تكن الأموال هي التي تثيرني وإنما شهوة الانتقام.. في اليوم التالي جاءني اتصال منه.. كان صوته رقيقاً ومرحاً.. امتدحني كثيراً، ثم طلب مني أن أزوره وحدي في بيته، وأخبرني أنه سيرسل سيارته المصفحة الخاصة كي تقلني..

حاولت التملص منه لكن دون جدوى.. وهكذا اتفقت معه على وقت محدد عصر ذلك اليوم، وفعلا أرسل سيارته التي أقلتني من مكان قريب من الإذاعة.....في بيته سقطت هيبة هذا القائد العسكري، الذي بعد أن اختلى معي، وأخذ يقبلني ويضمني، ثم أخذني إلى السرير، لكنه لم يستطع أن يدخلني برغم محاولاته المتعددة والمختلفة، ثم أدّعى بأنه تعبان. حاولت أن أخفف عنه وأن لا أحرجه، فأرتاح لموقفي منه.. وتعلق بي أكثر.....خلال جلستنا تلك حكيت له عن كل ما جرى معي ومع أمي وعشيقها.. فأخذ هاتفه واتصل بمختلف الجهات مباشرة.. أعجبني فيه أنه أهتم بشكل حقيقي بالموضوع، لكن النتيجة كانت مرعبة، إذ اتضح بأن الحاج آدم العراقي ليست لديه تلك العلاقات المهمة بالجهات الحكومية الكبيرة بحيث يقوم بالذي قام فيه، وإنما لديه علاقة بأحد الضباط الذي ساعده كمحاولة تخويف وترهيب لأمي وعشيقها من أجل الحصول على الهاتف الذي تم تسجيل مكالماته معي به، وفعلاً قام ذلك الضابط الذي يعمل في وزارة الداخلية بتلك المحاولة أثناء واجبه...لكن بعد أن تم اعتقال أمي وعشيقها وأخذهما إلى مكان ما في الداخلية، وعند انتهاء دوام هذا الضابط ومن معه، فأنه لم يخبر الضابط الذي جاء بعده بما جرى، وبأن ذلك من باب التخويف والترهيب، إذ قام الضابط الذي تلاه في ذلك

الموقع بنقلهم وإحالتهم إلى مكان آخر بتهمة الإرهاب وبالمادة 4، وحينما عاد ذلك الضابط إلى واجبه ثانية أدرك أن الأمر خرج عن يديه ولم يستطع أن يتراجع بسهولة عن استغلاله للوظيفة من أجل تحقيق أمور شخصية، وبعد وفاة عشيق أمي استطاع أن يتدخل من أجل الإفراج عن أمي بحجة الشبهة.... هكذا ماتت أمي وعشيقها من التعذيب نتيجة مزحة.. أو بتوصيف آخر استغلال متعمد للمنصب.

قطعت حواء هانوفر الحديث بتعليقها قائلة:

- ما يجري الآن يكاد يشابه ما كان يجري سابقاً..أعتذر عن المقاطعة

لم تعلق حواء البغدادي عليها وإنما واصلت حديثها:

- تعمقت علاقتي بهذا القائد العسكري.. صرنا نتحدث يوميا، وأحيانا أذهب إليه فنتحدث عن مختلف الأمور وكثيراً ما كان يروي لي قصصاً عن الوزراء والمسؤولين تثير العجب، وأحياناً كان يتصل ليروي لي آخر نكتة سمعها.. وكثيراً ما كان يتصل بي في آخر الليل ليضاجعني من خلال الهاتف.....طبعا، عشيقي صاحب المحطة عرف بذلك، وطلب مني أن أسجل له لحظات مضاجعته لي بالهاتف... رفضت أول الأمر، لكني لم أستطع أن أبقى على رفضي فقمت بالتسجيل له... وحينما سألته عن سبب

التسجيل له، لاسيما وأنه من معارفه..فقد كانا أصدقاء خلال فترة النظام السابق..فأكد لي بأن هذا التسجيل يهم الأجانب جدا...لأنه شخصية عسكرية.....طبعاً أنا أعرف عشيقي.. صاحب المحطة..فهو حقود، ومنافق..برغم الطيبة التي يبديها تجاهي..لقد شاهدته في أكثر من مرة داخل المكتب مع شخصيات سياسية معادية للنظام الحالي.. ففهمت بأنه ليس بريئا كما يبدو، برغم حديثه المستمر عن التسامح وبناء البلاد.....ليلة أمس..نعم ليلة أمس..اتصل معي صديقي القائد العسكري، وقال لي بأن لديه معلومات مهمة عن الحاج آدم العراقي، وإنه أخبر شخصية سياسية عما فعله هذا الحاج، فطلبت تلك الشخصية أن تسمع مني مباشرة تفاصيل ما جرى، وصباح هذا اليوم ذهبت إلى المكان الذي حدده لي..كنت هناك على الموعد لكنه تأخر، ولو لم يتأخر لما كنت بينكم الآن.. أنا متأكدة بأنه لا يعرف بأني هنا وإلا ما تركني هنا في قاعة التشريح...

قطع حديث حواء البغدادي دويٌّ هائل جاء من قاعة الثلاجات.. دويٌّ، أشبه بتداعي الأسرّة النقالة فوق بعضها وتصادمها، وكأنما انهارت الثلاجات وانقلبت إلى الأرض. صمتت حواء البغدادي.

ساد للحظات صمت في قاعة التشريح، وقبل أن تتوجه الجثث إلى النافذة أو الباب زحف الحارس آدم متراجعاً إلى الخلف ثم نهض هارباً إلى غرفته. دخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح وظل منقطع الأنفاس عند الباب، لاعناً نفسه الجبانة، وشجاعته المزيفة.

في غرفته أخذ الحارس آدم يفكر في الدوي الذي سمعه قادماً من قاعة الثلاجات، ما الذي يمكن أن يكون..؟ الجثث هناك محفوظة منذ فترات مختلفة، لكنها بلا استثناء من الجثث المجهولة التي لم يطالب بها أحد، بل ومعظم هؤلاء من الذين وجُدت جثثهم ملقاة في المزابل على أطراف مدينة بغداد، أو من الجثث التي تمزقت إثر الانفجارات اليومية في المدينة، لكن لم يأتِ من يسأل عنها، وبعضها من الجثث التي اغتيل أصحابها بكاتمات الصوت لكن لم يكن بالإمكان تحديد هوية أصحابها، ثم أن هذه الجثث قد تم تشريحها وخياطتها، وبالتالي فهي قد شبعت موتاً، وليست كالجثث التي جاءوا بها هذا اليوم، والتي يمكن لأرواحها أن ترفرف معها لثلاثة أيام كما يقال.

الحارس آدم ظل مستغرقاً في مثل هذه الأفكار، لكن الرغبة في معرفة ما جرى في قاعة الثلاجات ظلت تلحّ عليه، إلا أنه بالرغم من ذلك كان يشعر بالخوف.

(10)

الجثث الهاربة

ظل الحارس آدم عند الباب منقطع الأنفاس. أحس بالحنق على نفسه، ومن فضوله الجامح الذي يدفعه إلى الإقدام على اكتشاف الأشياء مهما كانت مخيفة، ومن ضعف أعصابه في مواجهة المواقف المخيفة تلك، فها هو للمرة الثانية يذهب زاحفاً إلى قاعة التشريح بينما يهرع كالأرنب المذعور عند سماع أية حركة في الممر، لكن ما جرى من دوي هائل في قاعة الثلاجات كان مرعباً حقاً.

لم يسترسل في أفكاره طويلاً، إذ سمع باب قاعة التشريح يُفتح بقوة، وأدرك أن الجثث بدأت تخرج منها. نعم..هناك حركة رتيبة لخطوات تمشي..إنها الجثث بلا شك.. بدأ وقع الخطوات يتجه نحو غرفته، توقف وقع الخطوات عند باب غرفته، لم يصدر أي صوت أو حركة مريبة. حين وضع عينه على البؤبؤ الزجاجي ليتأكد من أصحاب الخطوات التي توقفت عند بابه، قفز متراجعاً إلى الخلف من هول الصدمة. في تلك اللحظة التي

وضع عينه فيها على البؤبؤ كانت هناك عين لإحدى الجثث تضع عينها أيضا من البؤبؤ الزجاجي من الجهة الأخرى.

أحس برغبة عارمة في أن يتأكد مما رأى..قرب وجهه.. وضع عينه على البؤبؤ الزجاجي ونظر، لكن الغريب أنه لم يرَ شيئا. ابتعدت الخطوات..كادت تتلاشى في الممر..سمع ضجيجاً أشبه بمحاولة لفتح نوافذ مقفلة..لكن أية نوافذ..؟ فجأة، ساد الصمت في الممر من جديد.

ظل الحارس آدم واقفاً عند الباب في غرفته. سأل نفسه: لماذا هو يخاف الجثث..؟ هي لا تؤذي، وهي ليست بشعة أو مشوهة، لاسيما من الأمام، إلا تلك الجثث المتروكة في الثلاجات، فبعضها قد تغير لونه وصار أشبه بالرمادي المائل إلى الزرقة، وبعضها صار لونه بنفسجياً معتماً..لكنها في النهاية ليست أكثر من جثث عاجزة، فهل يخافها لأنه يخاف الموت..؟ لأنها أجساد ميتة..؟ ومن يؤكد أنها ميتة..؟ ألم يسمعها تتحدث وتروي قصصها..؟.. لا..هو يعرف أن هذه الجثث قد عرفت سر الموت، وأنها قد عبرت إلى الضفة الأخرى، فهي لا تشعر بأي ألم..؟ تُرى هل الشعور بالألم هو ما يميز الإنسان الحي عن الميت..؟ وهل الجثث تخاف..؟ لا.. لا.. الموتى لا يخافون، لكن من قال إن الموتى لا يخافون..؟ لا أحد يعرف ما يدور في أعماق تلك الجثث..

هل الوعي بالوجود هو سر الحياة..؟ وعكس ذلك هو الموت..؟ ومن يؤكد لنا بأن الأموات لا يعوون الوجود..؟ لكن كيف يعوونه وهم تحت التراب؟ أو أنهم رماد نثر في نهر، كما الهنود؟

من المؤكد أن ما يميز حياة الإنسان هو روحه وليس حياة الجسد فحسب..أليس كذلك..؟ وإلا فمن نحن عندما نكون نياماً..؟ بل أين يذهب وعينا عند النوم..؟ صحيح أن الجسد يستمر في عمله بدقة إلا أن الإنسان ليس هو الإنسان عند النوم..؟ وإلا فليسأل كل شخص منا نفسه بعد أن يستيقظ من النوم أين كان هو كإنسان، كوعي وشخصية، وأفكار ومشاعر، خلال ساعات النوم..؟..ظل الحارس آدم منهمكاً بأسئلته التي بدأت تزدحم باحثة عن أجوبة..لكن فجأة تذكر أنه أجريت له عملية جراحية ذات مرة، وتم تخديره.. كان الوقت حينها صباحاً، لكنه استيقظ عند العصر، وكان جسده قد شق وفُتحت أعضاؤه وأجريت له العملية. سأل نفسه: أين كان هو خلال كل ذلك الوقت؟ لقد عطلوا أماكن الإحساس بالألم في دماغه فلم يشعر بأي شيء خلال فتح جسده، فهل هذا يعني أن الوعي في الجوهر هو وعي الألم والإحساس بالوجع..؟ وأين يكون المرء المخدر حينها..؟ هل هو جثة حية..؟ أو حياة ميتة..؟

انتبه الحارس آدم إلى أنه قد هدأ نتيجة هذا الدفق من الأفكار وانشغل عن التفكير بالجثث والضجة التي كانت في الممر، لكن هذا الدفق لم يمنحه الراحة في معرفة ما جرى والتأكد منه، هل ترى كان كل هذا حقيقة أو شطحات وتخيلات لا أساس لها..؟

جلس على الصوفة الجلدية ، حائراً، مشوشاً، يحس بغموض ما يدور حوله من أشياء وأحداث.. لم يكن يعرف ماذا يفعل ليوقف دفق الأسئلة وثقل الحيرة التي أخذت مثل غمامة تغطي سماء ذهنه..أراد أن يخرج من حالته تلك، فأخذ الريموت كونترول وضغط عليه. لم تظهر على شاشة التلفزيون أية صورة أو بث لأية قناة تلفزيونية، وإنما كانت الشاشة زرقاء تماماً. فجأة ظهرت صور سريعة متقطعة، ثم استقرت الشاشة، فظهرت صورة أشبه بصور مأخوذة من كاميرا خفية أو مثبته على جدار.. ركز في الصور التي ظهرت على الشاشة ، فأدرك فوراً بأن الشاشة تنقل صورا من الممر..نعم ها هو ممر المشرحة في الطابق الذي يعيش هو فيه.. الكاميرا تبدو وكأنها موضوعة في جهة الدرج..لكن الشاشة تبث فيلما مسجلاً عاشه هو..ما هذا..؟ ها هو الطبيب الخفر والمساعد ورجال الحرس الوطني وهم يقفون عند بابه، يتحدثون في ما بينهم..ثم يبدأ المساعد بطرق الباب.. لا يسمع هو شيئاً من الطرق، وكأنه يشاهد فيلماً صامتاً...ثم شاهد نفسه..ها هو قد خرج إليهم..تحدث معهم..جميعهم توجهوا نحو جهة قاعة التشريح..يدخلون القاعة..الكاميرا تصور الممر فقط..أحد أفراد الحرس الوطني عند باب قاعة التشريح..تذكر هو..أنه الذي رفض دخول قاعة التشريح..وها هم يخرجون من قاعة التشريح ويتجهون نحو الكاميرا.. يختفون من اللقطة..ها هو يعود ..يتلفت في الممر ثم يدخل غرفته..ما هذا ..؟ سأل الحارس آدم نفسه...ظل ينظر إلى الشاشة منذهلا..كانت الشاشة تنقل صورة الممر الفارغ..ما الذي

يجري..؟ لماذا لا يبث التلفزيون أية برامج..؟ لماذ نقل ما يجري في الممر..؟ وأين هي الكاميرا..؟ أين وضعت..؟ هو لا يعرف بأن هناك كاميرا في الممر. ربما هي موجودة منذ زمن وهو لا يعلم بذلك..؟..فكر مع نفسه: ربما لهذا السبب كان المساعد يظهر له كلما فكر بصعود الطابق الأعلى..؟ أي أنه كان مراقباً مثلما الطابق كله مراقب..؟ لكن لماذا..؟.. مهلاً..مهلاً..ما هذا..ما هذا الذي أراه..؟.

انتبه إلى الشاشة بتركيز شديد..ثمة حركة ما في الممر. ها هي جثث النساء تخرج من قاعة التشريح..تتجه نحو جهة قاعة الثلاجات.. تتوقف عند باب قاعة الثلاجات..لا تدخل..تتحرك إلى عمق الممر..الكاميرا تتبع الجثث في حركتها..الجثث تتوجه إلى أقصى المـمر..ماذا يرى..؟ هناك نافذة عريضة مفتوحة على الشارع في أقصى الممر..ماذا يجري..؟ ها هي الجثث تصعد كرسياً موضوعاً هناك عند أسفل النافذة..من فتح هذه النافذة..؟ هو يعرف أنها مقفلة من الخارج والداخل..فكيف فُتحت..؟ شاهد الجثث تصطف، بتمزقها البشع من الخلف..كل جثة تصعد الكرسي..تتشبث بالنافذة لتقفز من خلاله خارجة إلى الشارع. إذن، ما قاله الطبيب والمساعد ورجال الحرس الوطني صحيح، فثمة جثث هربت من المشرحة...لكن حينها كانت جثث النساء موجودة في قاعة التشريح.. إذن..كانوا يتحدثون عن جثث أخرى..فجأة ، فكر مع نفسه بأن في قاعة الثلاجات عشرات الجثث، وهو قد سمع ضجيجا ودويا قادما من هناك.. فهل هذا يعني بأن الجثث المتجمدة الموجودة في قاعة الثلاجات قد

هربت من المشرحة..؟ لكن إلى أين تذهب وهي أساساً مجهولة الهوية ولا أحد سأل عنها..؟ ثم كيف لها أن تتحرك وتهرب وهي ميتة..؟ لا..ها هو يرى بنفسه كيف غادرت جثث النساء في قاعة التشريح المشرحة عبر النافذة..لكن كيف سجلت الكاميرا كل هذا بينما لم يسأل أحد عن الجثث الهاربة..؟ فالجثث هربت بعد ذهاب الطبيب ومساعده ورجال الحرس الوطني..هذا يعني أن الكاميرا لا تبث شيئا مباشراً..وإنما تعيد بث شيء قد تم تصويره..لكن لماذا..؟ ومن يقوم بذلك..؟ انتبه إلى الشاشة تحمل في زاوية منها إشارة قناة الدولة الرسمية..أي أن البث رسمي..ويراه الملايين في جميع أنحاء البلاد..ما الذي يجري..؟ تُرى هل جن، وأن ما يراه هو من شطحات عقله الممسوس؟ لا، لا بد من التأكد من كل هذا.. عليّ أن أقوم بتفتيش القاعات لكي أتأكد بنفسي..فأنا حارس المشرحة والمسؤول عن جميع الجثث التي فيها..

كان الحارس آدم في حالة توتر شديد.. فجأة، نهض مغادراً الغرفة تاركاً الباب مفتوحاً، وشاشة التلفزيون مستمرة ببث صور الممر وما يجري فيه.

حينما صار في الممر وجد أنه خالٍ ولا أثر لأحد، ويهيمن عليه صمت مطبق. نظر إلى عمق المـمر حيث يفترض وجود النافذة المفتوحة التي هربت منها الجثث فرأى أنها موصدة كما كان يراها دائماً، ولا كرسي هناك تحتها.. ما الذي يجري..؟ كيف هذا..؟ ألم يشاهد عبر شاشة التلفزيون في غرفته الجثثَ وهي تصعد الكرسي هاربة عبر النافذة..؟.

مشى في الممر بخطوات بطيئة وحذرة. قرر أن يذهب إلى قاعة الثلاجات الأبعد من قاعة التشريح ليتأكد مما يجري هناك، وحينما اقترب من نافذة قاعة التشريح تقرفص على الأرض ومشى زاحفا ببطء إلى أن اجتاز مسافة الباب والنافذة، وما أن عبر حدود قاعة التشريح حتى استقام ثانية متجها نحو قاعة الثلاجات.

دفع الحارس آدم باب قاعة الثلاجات فهاله ما رأى. كانت جميع الثلاجات بكل طوابقها قد فُتحت وغادرت الجثث أماكنها. القاعة فارغة بالكامل..وبعض النقالات قد قُلبت على الأرض.. إذن، ما سمعه من دوي في حينها كان صحيحاً..؟ وما قاله رجال الحرس الوطني من مشاهدتهم لجثث تمشي على الجسر كان صحيحا أيضا..؟ ماذا عليه أن يفعل..؟ ستقع مسؤولية هروب الجثث عليه بلا شك، فهو حارس المشرحة..؟

فكّر للحظات بمصير الجثث الهاربة، فهو يعرف أصحابها، معظمهم رجال من مختلف الأعمار.. رجال بلا أسماء، ولا هويات شخصية، فهم مجهولون ولا يعرف أحد عنهم شيئاً، سوى أنهم موتى.. وجدت جثثهم في أطراف المدينة..في الأنهار..في الخرائب البعيدة. في منعطفات الشوارع..بعد الانفجارات اليومية المختلفة..لكنهم مجهولون..لا أحد يعرف من هم..لذا أين سيذهبون..؟ ومن سيأويهم..؟ لاسيما وهم في حالات مزرية ومرعبة ونتنة..؟.. ثم..أين سينامون؟ وهل سيبقون عراة..؟ فجأة فكر في أن ملابس الجثث في المخزن..فهل يعني أنهم هربوا عراةً..؟ لا..لا..لو كان الأمر كذلك لقال رجال الحرس الوطني إنهم عراة ..عليه

التأكد من ذلك..عليه أن يذهب إلى المخزن المقابل لقاعة الثلاجات، فربما سرقوا ملابسهم أيضا..؟.

خرج من قاعة الثلاجات مرتبكاً ومشوشاً.. دفع الباب المقابل لها والذي كتب عليه بخط أسود عريض (المخزن)، فبهت، وأحس بالعجز عن تصور الأمر.. كانت خزانات الملابس مفتوحة الأبواب..وفارغة.. وبدا المخرن خالياً من أية قطعة قماش..! هذا يعني أن الجثث ارتدت ملابسها وهربت..لكن كيف حدث ذلـك..؟ وكيف ستدخل جثثهم المتورمة في ملابسهم..؟.

فجأة، طرقت خاطرة ذهنه المتوتر، ماذا عن الجثث الجديدة للنساء في قاعة التشريح..؟ لقد رآها من خلال شاشة التلفزيون وهي تهرب عبر النافذة..فهل هربت فعلاً..؟.

خرج مسرعا من المخزن متجها إلى قاعة التشريح، وتعجب من نفسه بأنه لم يعـد يخاف الجثث، بل أحس بمسؤوليته كحارس للمشرحة، وأنه المسؤول عن سلامة الجثث فيها..وهو سوف يواجهها جميعا إذا ما حاولت الهرب...

حين دفع باب قاعة التشريح أصيب بالذهول..لم يجد أياً من جثث النساء، سوى جثة الصبي الصغير وهي ترقد على السرير النقال..؟ إذن، ما رآه كان نقلاً مباشراً لعملية الهروب..؟ لكن كيف هذا وقناة الدولة الرسمية هي التي كانت تنقل البث الحي..؟.

خرج من قاعة التشريح مذهولا، مرعوبا، أين ذهبت هذه الجثث..؟ ومتى حدث ذلك..؟ وكيف تمكنوا من فتح النافذة المقفلة بإحكام..؟ وإلى أين ذهبوا..؟ ولماذا هربوا أصلاً..؟.

أحس بأن عليه إخبار الطبيب الخفر ومساعده، فركض في الممر متجهاً إلى الطابق الأرضي، حيث غرفة مساعد الطبيب. تعثرت قدمه عند السلّم والتوت. أحس بألم في قدمه اليمنى، وبرغم ذلك صعد السلم، مندفعاً نحو غرفة المساعد، فطرقها بقوة بحيث كان يمكن للطبيب في غرفته بالطابق الأعلى أن يسمع ذلك. لم يفتح له أحد، فشد على مقبض الباب، لكن فوجئ حينما وجد الباب مفتوحاً، ولا أحد في الغرفة.

لم يفهم لماذا مساعد الطبيب غير موجود في غرفته..ولم يفكر طويلاً في الأمر، ودون أن يتوقف كثيراً، ركض نحو الطابق الأعلى حيث غرفة الطبيب الخفر، لكنه فجأة أحس بالتردد، فأين سيكتشف غرفة الطبيب في ذلك الممر المرمري الذي رآه حينما صعد في المرة السابقة..؟ ولربما سيقابل الرجال الثلاثة الذين جاءوا إليه مع المساعد، والذين رآهم في الطابق الأعلى حينما صعد لاستكشافه..؟ بل، ربما سيواجه عشرات الجثث الهاربة من زنزاناتها في الطابق الأعلى أيضاً..؟.

كانت قدمه تؤلمه، لكنه برغم تردده أسرع بالصعود إلى الطابق الأعلى. حينما أطل على الطابق إزدادت حيرته حينما اكتشف أن الطابق كما هو، كما يراه في كل ليلة، وليس كما رآه وكأنما في كوكب آخر..حيث

استمع لقصة آدم كاشف الليل وآدم الخباز، وحواء المفتي.. هؤلاء الذين كانوا في زنازينهم المخيفة يتحدثون عن حياتهم.. سأل نفسه عن سر هذه التحولات العجيبة في المكان..؟ وكالعادة لم يجد جواباً لسؤاله.

توجه إلى غرفة الطبيب الخفر، ودون أن يطرقها قبض على مقبض الباب فوجده غير مقفل أيضاً، فحركه داخلاً، فلم يجد أحداً فيها أيضا..؟ ما الذي يجري في هذه المشرحة..؟ أين الطبيب الخفر ومساعده..؟

لا يدري أية رغبة دفينة دفعته للتوجه إلى النافذة والنظر من خلالها إلى الخارج..؟ لكن ما رآه أصابه بالذهول والرعب..

كانت الجثث الهاربة تتحرك في الشارع المقابل للمشرحة في الظلمة، حركات بطيئة وميكانيكية، لكنها تبقى حركات لأجساد بشرية.. من بعيد رأى الرجال الثلاثة الذين كانوا يقفون أمام البوابة عند المطر، ورأى الطبيب ومساعده، رأى النساء الخمس، وكل الذين كانوا في قاعة الثلاجات، وآخرين لا يدري من أين جاءوا.. ربما هم هؤلاء الذين كانوا في زنازين الطابق الأعلى الذي بدا له وكأنه مكان خارج المشرحة..؟ أحسّ وكأن الحياة عادت إلى بغداد، حياة ميتة، والمدينة صارت تكتظ بالجثث الحية.. إذن، لم يبق في المشرحة سواه والصبي..؟ .

لم يكن الحارس آدم يعرف ماذا عليه أن يفعل..؟ ولم يفهم ما يجري..ولم يجد له تفسيراً..؟ أحسّ أن كل شيء مشوش في ذهنه..؟

خرج من غـرفة الطبيب الخفر ببطء شديد بعد أن تأمل الغرفة بنظرة سريعة. خرج نازلا إلى غرفته.. مشوشاً أكثر مما كان عليه في العادة..

لم يعد يفكر بشيء، أقصى ما يتمناه هو الوصول إلى غرفته والتمدد على الصوفة الجلدية.. إنه بحاجة إلى النوم، لم يعد يتحمل التفكير في الجثث وأحداث هذه اليوم المرعب أكثر، ليكن ما يكون، عليه الآن أن ينام، أو على الأقل أن يسترخي من هذا التشويش الهائل الذي يجد نفسه فيه.

حين وصل أسفل السلم.. وعند الدرجة الأخيرة منه، وفي بداية الممر وجد أن باب غرفته مفتوح، صُدم، لكن سرعان ما تذكر أنه تركه مفتوحاً. نظر إلى عمق المـمر، حيث أراد أن يتأكد من النافذة المقفلة.. فهاله ما رأى.

كان هناك كلب أسود، هائل الحجم كالجاموس، وكان الكلب الأسـود ينظر إليه بعينيه الفسفوريتين نظرة متحفزة، وكأنه يتأهب للانـقـضـاض عليه.

توقف الحارس آدم متجمداً من هول المفاجأة. سأل نفسه بسرعة خاطفة عن سر هذا الكلب الأسود، الهائل الحجم كالجاموس، الذي لم يشاهد شبيهاً له حتى في الأفـلام، من أين جـاء..؟ وكيف دخل إلى المشرحة..؟ ومن أية جهة وصل إلى هذا الممر؟.

كل منهما كان ينظر إلى الآخر بتركيز شديد. كان الحارس آدم يريد الوصول إلى غرفته بأقصى السرعة متجنباً هجوم الكلب الأسود، لذلك

كان يقيس المسافة بينه وبين باب غرفته، وبينه وبين الكلب الأسود المرعب.

في الطرف الآخر كان الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس ينظر إلى الحارس آدم وكأنه يخمن ما يدور في ذهنه من القفز سريعاً إلى غرفته، لأنه كان بدوره يتحفز للقفز عليه، ويدير جسده وقوائمه استعداداً.

كان بين الحارس آدم وباب الغرفة بضع خطوات، بينما بينه وبين الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس كانت المسافة تُقدر بأكثر من ثمانين متراً، إذ هو في أقصى الطرف الآخر من الممر.

تهيأ الكلب الأسود إلى القفز باتجاه الحارس آدم بشكل واضح، بينما تهيأ الحارس آدم بدوره للركض بأقصى سرعته إلى غرفته التي كانت من حسن حظه قد تركها مفتوحة الباب.

قرر الحارس آدم أن يعدّ مع نفسه إلى الثلاثة، ثم يركض إلى غرفته بأقصى سرعته، وفعلاً بدأ العدّ: واحد.. اثنان.. ثلاثة. ركض بأقصى ما يمكن، قافزا بشكل هائل، وسريع جداً، وبكل الطاقة التي يولدها الرعب .

في اللحظة التي انطلق فيها الحارس آدم راكضا نحو غرفته، قفز الكلب الأسود قفزة هائلة نحوه، لكنه لم يستطع الوصول إليه قبل دخوله الغرفة، إذ أن الحارس آدم قد سبقه في الوصول إلى غرفته غالقاً الباب خلفه بقوة، واضعاً المفتاح في قفلها من الداخل، بينما قد قطع الكلب الأسود المسافة بقفزتين، وفي القفزة الثالثة تزحلق متجاوزاً الباب واصلاً إلى السلم.

في اللحظة التي دخل فيها الحارس آدم إلى غرفتـه أغلق الباب خلفه بالمفتاح. كان قد وصل إلى أقصى درجات الرعب، فهو لم يرتعب من الجثث حينما وصلت إلى بابه مثلما ارتعب من هذا الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس.

فجأة سمع حركة واحتكاك مخالب على الباب من الخارج..ما هذا..؟. بحذر شديد وضع عينه على البؤبؤ الزجاجي، لكنه سرعان ما ارتد ملتصقا بالحائط الجانبي للباب.. لقد رأى الكلب الأسود متشبثا بمخالبه، واقفا بقامته الشاهقة، مستندا بقائمتيه الأماميتين على الباب، مقرباً رأسه الكبيرة المرعبة من البؤبؤ، وكأنه يعرف أن الحارس آدم يقف خلفها.

بعد دقائق هدأ الحارس آدم قليلاً، لكنه بعد هروب الجثث صار أكثر جرأة، لذلك أراد أن يتأكد من وجود الكلب، الذي لم يكن الحارس آدم يفهم لماذا هجم عليه..؟ إلى جانب الأسئلة الأخرى عن لغز هذا الكلب الأسود الهائل كالجاموس. وبحذر شديد وضع عينه على البؤبؤ الزجاجي مرة أخرى فلم يرَ شيئاً..رأى الكلب الأسود وهو يُرجع رأسه إلى الوراء وكأنه يعرف أن الحارس ينظر إليه ليبدو وجهه له كاملاً، فارتد الحارس آدم خائفا مرة أخرى.

ظل واقفا عند الباب. سمع خربشات على الباب بدا منها وكأن الكلب أنزل قوائمه عن الباب.. انتبه إلى شاشة التلفزيون فرأى أن القناة الرسمية للدولة لا تزال تنقل وقائع ما يجري في الممر ببث مباشر..ورأى الكلب الأسود الهائل كالجاموس يبتعد متجها إلى مكانه الأول في أقصى الممر.

انتبه الحارس آدم إلى أن الممر كان خاليا كما كان، سوى من الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس، الذي بدا على الشاشة وهو يغطي الممر لضخامته.

اقترب الحارس آدم من الشاشة، جلس على الصوفة الجلدية منهاراً، وظل يتابع ما يجري على الشاشة.

انتبه إلى أن الكلب الأسود بدا مهيمناً على الممر، وكان يمشي وكأنه يعرف المكان جيداً. وقف عند باب قاعة التشريح، التفت إلى داخلها..لكنه لم يدخل، وإنما واصل طريقه إلى أقصى الممر، حيث قاعة الثلاجات. التفت إلى الوراء وكأنه يريد أن يتأكد من أن الحارس آدم لم يخرج من غرفته أو أن الممر خال من أي مخلوق آخر، ثم دخل إلى قاعة الثلاجات.

حاول الحارس آدم أن يسترخي على الصوفة الجلدية، لكنه لم يستطع. كانت الأفكار والأسئلة لا تمنحه الهدوء، والتوتر يشده وهو يتابع هذا الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس في المشرحة، محاولا أن يفسر وجوده.

فكّر مع نفسه باحثاً عن تفسير. سأل نفسه: هل حضور هذا الكلب الأسود هو جزء من عذابات ما بعد الموت كما يرد في معتقدات بعض الأديان والأساطير..؟ لقد قرأ في أساطير اليونان وجود مثل هذا الكلب يسمى (كلب الجحيم).. لكن ذاك الكلب كان برؤوس ثلاثة... كما في

كتب مختلفة أن الفراعنة كانوا يؤمنون بوجود كلب اسمه (هم هم)، وفي بعض البرديات جاء اسمه (عم ميت) أو (آكل الموتى)، الذي مهمته التهام قلوب الخطاة بعد وضعها في الميزان وتبيان ثقل خطاياهم، لكن هذا في العالم الآخر وليس في المشرحة..والمشرحة هي ليست العالم الآخر.. وإنما هي مشرحة تقع في قلب بغداد..؟ أترى قد تحولت مشرحة بغداد إلى دار للقيامة ودار للحساب وهو لا يدري..؟ لكننا نحن في الأرض ولسنا في العالم الآخر..؟ كانت الأسئلة تضج في ذهنه المتوتر، إلا أنه انتبه فجأة إلى أن الكلب الأسود لم يدخل إلى قاعة التشريح حيث يرقد الصبي..؟ هل حقا أن الأطفال لا يحاسبون بعد الموت ويذهبون إلى الجنة بدون حساب..؟ ألأنه بلا ذنوب لهذا لم يقترب الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس منه..؟ وإذا كان الأطفال هم (طيور الجنة) فلماذا إذن، يرقد هذا هذا الصبي هنا ولا يذهب إلى الجنة مباشرة..؟

كان الحارس آدم يدور في متاهة الأسئلة التي لم يجد لها منفذاً، ولا بصيصاً من نور الأجوبة..لكنه ظل منتبها لكل حركة في الممر الذي ظل خالياَ من أية حركة لفترة طويلة، إذ كانت عيناه لا تفارقان شاشة التلفزيون..لكنه لم ينتبه كيف أنه غط في سبات عميق.

(11)

حـراس السجن المظـلم

على الرغم من أن الحارس آدم كان غارقاً في لجة سباته العميق، إلا أن شاشة التلفزيون في غرفته كانت قد أخذت تنقل أحداثاً هائلة تجري في الممر. فجأة، صحا آدم الحارس على ضجيج في غرفته، انتبه إلى أن الضجيج قادم من جهاز التلفزيون. ألقى نظرة سريعة على الشاشة فعرف أنها تبث وقائع تجري في المـمر. تقرفص على الصوفة الجلدية خائفاً، متابعاً ما يجري بلهفة.

ظهر على شاشة التلفزيون مجموعة من الرجال الأنيقين وامرأتان. كانوا ثلاثة رجال بملابس أنيقة، أما المرأتان فكانت إحداهما شقراء، جميلة الشكل، أنيقة الملبس، وأخرى محجبة ترتدي عباءة سوداء، وبينهما الطبيب الخفر ومساعده، وخلفهم رجال الحرس الوطني. انتبه إلى أنه كثيرا ما ظهر هؤلاء رجالاً ونساء، على شاشات التلفزيون، فهم من طاقم البرلمان والسلطة. انتبه لشيء ما يسحلونه..نعم أنهم يسحلون جثة كان يعرف أنها موجودة في قاعة الثلاجات منذ فترة قصيرة.. كانت جثة لرجل

سمع صوته عبر شاشة التلفزيون وهو يصرخ و يقسم مؤكدا بأنه لن يتكلم عنهم شيئاً ، ولا يريد سوى أن يتركوه يذهب لمحافظته الجنوبية البعيدة.

كان الرجال الثلاثة والمرأتان، الذين انتبه الحارس آدم إلى أنهم يحملون ندب الخياطة عند أعناقهم وأعلى جباههم، لا يريدون أن تغادر تلك الجثة المقبوض عليها المشرحة، فقد ألقى أفراد حماياتهم القبض عليها وأتوا ليعيدوها إلى هذا المكان، وكانوا يخاطبون رجال الحرس الوطني بألا يسمحوا لها بمغادرة المشرحة، وإذا اقتضى الأمر فيجب تقطيعها إرباً إرباً، واتهموا الجثة بأنها ذات لسان طويل فهي تسبهم وتشتمهم أمام بقية الجثث حينما كانت هنا، وكذلك حينما غادرت المشرحة أخذت تنشر أكاذيب واتهامات لنا، وكذلك أخذت تشتم الحكومة في كل مناسبة، بينما كانت الجثة تقسم لهم بأغلظ الأيمان بأنه لن ينطق بأية كلمة، وأنه لن يخرج من بيته إذا ما تركوه يذهب، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالذهاب إلى بيته فقط، فلديه طفل معاق وأم عجوز لا تستطيع أن تخدم ابنه، فزوجته هجرته مع سائق أحدهم ، وهو لا يريد سوى أن يذهب ليخدم ابنه وأمه العجوز. كانت الضجة عالية في الممر. فجأة حدث تشويش في البث الفضائي للحظات. أخذت شاشة التلفزيون تتنقل بسرعة بين قنوات عديدة، إلى أن استقرت مرة أخرى على المحطة الرسمية للبلاد التي كانت مستمرة في نقل وقائع ما يجري في الممر تحت الأرضي في مشرحة بغداد.

استقرت شاشة التلفزيون، فبدا عليها صورة أحد رجال الحرس الوطني ومساعد الطبيب يمسكان ذراعي الجثة ويسحلانها باتجاه قاعة الثلاجات.

فجأة، توقف الجميع وعلى وجوههم ارتباك واضح ودهشة كبيرة، لقد رأوا شيئاً ما أمامهم، بث الرعب في نفوسهم والارتباك على ملامحهم.

كان الارتباك والخوف والدهشة بادية على وجوه الجميع، ويبدو أنهم يعرفون ذلك الذي قابلوه وفاجأهم بوجوده في الممر، لأن دهشتهم لم تكن تشي بأنهم يرونه لأول مرة، وإنما في أن يروه وهم في مثل هذا الموقف الذي هم فيه.

المرأتان، الأنيقة الشقراء والمحجبة، لم تتحملا هول الصدمة فجلستا على الأرض، وقد ارتسمت ملامح الرعب على وجهيهما، وأخذتا تتلفتان وتنظران لبعضهما وكأنهما تحاولان الاختفاء أو تجنب النظر إلى الأمام لهول الموقف.

لم يرَ الحارس آدم ما يجري في الطرف الآخر، ومن يقف هناك، لأن الكاميرا كانت تنقل ما يدور في جهة الرجال الأنيقين والمرأتين ومن معهم، وانتبه الحارس آدم إلى أن هناك كاميرا في الجهة الأخرى حيث النافذة أيضاً، فقد كان يشاهد لقطات دخول الكلب الأسود إلى قاعة الثلاجات حيث كانت الكاميرا تصور المشهد من جهة غرفته، لكنه الآن يرى المشهد من الجهة الأخرى، لذا لم يرَ لحد الآن من الذي كان في الجهة المقابلة لهؤلاء والذي بث الرعب فيهم.

فجأة، هدر صوت وكأنه يأتي من مكان ما غير التلفزيون، والممر، والمشرحة، بل وكأنه يأت من جهاز تسجيل مكبر، فاهتزت الغرفة

والمـمر والمشرحة من هول هديره. لكن هذا الصوت الهائل كان يتضمن سؤالا:

- ما الذي يجـري هنا..؟

بدأت شفاه الآخرين وخدودهم بالارتجاف وهم يسعون في البحث عن جواب. كان الرجال يقفون بتذلل مثل تلاميذ مذنبين أمام مدير المدرسة، كل منهم كان ينتظر أن يبادر غيره بالجواب. وحينما طال انتظار من يقف في الطرف المقابل للجواب، بدأت ما تشبه الأشعة الفسفورية الصفراء التي أخذت تتلون متحولة إلى اللون البرتقالي تطغي على إضاءة الممر البيضاء.. كانت هذه الأشعة علامة خطر فهمها كل من كان في الممر. أحد الرجال الأنيقين الذي كان يتوسط المجموعة، والذي بدا أنه الأعلى مقاما بينهم بادر بالجواب قائلاً بشجاعة مصطنعة:

- سيدي المحترم، هذه الجثة النتنة هي لموظف خان الأمانة التي أوكلها الشعب له، عينّاه في موقع جيد في لجنتنا التحقيقية، موقع المقرر والمدون لما يجري من حوارات، فأخذ يسرب معلومات اللجنة، ويشتم الحكومة ورجالها الشرفاء.. ويسرب نقاشات داخلية لم يكن مسموحاً له بتسريبها..سيدي المحترم.. حضرتك تعرفني جيداً.. أنا آدم التاجر، وهذا نائبي آدم الملا ربما لا تعرفه سابقاً لكنه ظهر فجأة في الدورة الأخيرة، وهذا الحاج آدم الروحاني ربما لم تتعرف به سابقاً.. وهاتان السيدتان،

(التفت آدم التاجر مفتشا عن المرأتين، ففسحوا له المجال لتتبين أنهما جالستان القرفصاء خلفهم، محاولتان التستر، فأشار إليهما)..هذه الشقراء هي حـواء الشمالية، أما تلك المحجبة فحواء الدلالة.. أما بقية الأخوة فمن رجال الحرس الوطني، وهذان هما الطبيب الخفر ومساعده. والحقيقة أننا ألقينا القبض على هذه الجثة الهاربة..و نريد أن تبقى في المشرحة ومنعها من المغادرة لحين انتهاء التحقيق في ملفها .

كانت الجثة المقبوض عليها تنظر بتوسل وإنكسار إلى الجهة الأخرى غير المنظورة في الشاشة، وتقلب النظر بينها وبين المجموعة، وكأنها تنتظر القرار الأخير.

في غرفته كان الحارس آدم متوتراً، فبرغم أنه كان مرعوباً أول الأمر إلا أن رعبه تحول إلى توتر وتشويق درامي، إذ أخذ يتابع ما يجري في المـمر وكأنه يتابع فيلماً أميركياً درامياً مشوقاً، فيلماً من أفلام الرعب والخيال العلمي.

جاء الصوت من مكان ما، هادراً:

- أنت يا آدم التاجـر آخر من يحق له الحديث عن الأمانة، بل أنتم جميعاً، رجالاً ونساء، لا يحق لكم الحديث عن الأمانة، وأنتم تعرفون ما أعني جيداً..؟

صعق آدم التاجر من الرد، وقال بتلعثم وهو يبتلع ريقـه :

- نعم ، سيدي..ومولاي..

هدر الصوت ثانية، مجلجلاً في الممر، متردداً في كل أرجاء المشرحة..وما يحيطها من شوارع..وبغداد كلها، وكأنه صوت يدوي كالرعد :

- أنتم تلوثون الماء الجاري..أنتم تخرّبون الأرض المفلوحة.. أنتم أقدام نارية تحرق كل ما تدوسه أو تمـر عليه.. أنتم حراس السجن المظلم.. أنتم طاعون أصاب البلاد..أنتم قيح أفسد الهواء.. و لعنة تجوب البراري.. إياكم أنتم بالذات أن تتحدثوا عن النزاهة والأمانة..

ازداد ارتباك آدم التاجر أكثر، فقال بتلعثم:

- أنا يا سيدي..و مولاي..

- اخرس.. يا آدم..أيها التاجر..

ارتعب الجميع، رجالاً ونساء، من نبرة الجواب التي تلقاها آدم التاجر، وصيغة الاتهام التي شملت الجميع.. بعد لحظات ثقيلة من الصمت هدر الصوت مرة أخرى، فارتعشت مفاصل رجل الحرس الوطني ومساعد الطبيب خوفاً، فتركا الجثة التي يمسكان بها، وسمعا دوي الصوت الذي كان موجهاً للجثة المتهمة:

- وأنتَ.. يا نقار الخشب.. أيها القنفذ الجبان..أيها الشمعة السوداء المطفئة..لِمَ تخاف هؤلاء التعساء..؟ هؤلاء أحقر من أن تهابهم..؟ إنهم ينجسون الأرض التي يقفون عليها..

برغم الإهانة التي تلقتها الجثة المقبوض عليها، إلا أنها تقبلت الإهانة بإرتياح لما رافقها من تعنيف للآخرين، فتقدمت، بعد أن تحررت من قبضة الآخرين، خطوة إلى الأمام وجثت على ركبتيها، متوجهة إلى الذي يقف في الجهة المقابلة من الممر بمواجهة هذا الجمع من الرجال والنساء، فأحنت رأسها ورفعته ثم قالت بتوسل:

- مولاي..وسيدي.. ارحمني وارحم بؤسي..أهي لعنة أني ولدتُ في هذا العالم وفي هذه البلاد؟ ليت رحم أمي كان قد صار لي ضريحاً..؟.. في ذلك اليوم الذي اغتالني في غرفتي البائسة رجل أرسله هؤلاء، (وأشار بيده إلى الرجال الأنيقين والمرأتين) بمسدس كاتم للصوت، ثم جاءوا بي إلى هنا..في ذلك اليوم.. بعد أن اخترقت الرصاصة رأسي، جاءتني أشباح لا تعرف الرحمة، سحبوا روحي التعيسة من جسدي، ثم طووها على هيئة حصان أسود وراحوا يقودونني إلى وديان غريبة.. مررت بخندق عميق يمتلئ بالزواحف، ولكل زاحف سبعة رؤوس، كل زاحف له هيئة أشبه بهيئة العقرب..هناك..في ذاك الخندق رأيت الدودة العظيمة، الدودة التي في فمها أسنان تشبه الأوتاد الحديدية، أرادوا أن يلقوا بي هناك، لكنهم غيروا رأيهم، ثم

جاءوا بي إلى هنا..أعادوني..لكن بدون روحي..ووجدت نفسي في هذه المشرحة.. وهنا في قاعة التشريح، شقوا صدري وأخرجوا قلبي..هنا يا سيدي ومولاي تُشرّح الجثث وتؤخذ قلوبها...هنا، بعد أن شقوا صدري وأخذوا قلبي وكبدي، وضعوني على سرير نقال وأدخلوني إلى الثلاجة. لا أدري كيف أيقظتني بقية الجثث وقالت علينا أن نغادر المكان، لنذهب إلى أماكننا وبيوتنا ودوائرنا، وحينما ذهبت إلى مكان عملي، جاء هؤلاء جميعهم، وألقوا القبض عليّ، وهم يريدون أن يمزقوني، يقطعوا لساني، وأطرافي، بحيث لا أستطيع أن أقول شيئاً صادقاً. أنت تعرف يا سيدي أن الموتى لا يكذبون...

جاء الصوت من الجهة الأخرى مدوياً، قائلاً:

- إنهم يكذبون، هم من عبيد المال والسلطة.. وهؤلاء يكذبون حتى وهم موتى... لكن لماذا يريدون أن يفعلوا بك ذلك..؟ ما الذي لديك ضدهم..؟

تقدمت الجثة إلى الأمام زاحفة على ركبتيها باتجاه الشخصية غير المنظورة على الشاشة، وقالت بنبرة توسل واستغفار:

- أنا آثم ومذنب وأقر بذلك لأني أطعت هؤلاء.. لقد بعت مسرة قلبي بالرغم من أن الفقر كان يعكرها، واشتريت الأحزان التي زينتها الرفاهية والجاه من الخارج.. لقد عملت مع هؤلاء في

لجنتهم التحقيقية، كاتباً مقرراً لما يتفقون عليه في اجتماعاتهم، لكني وخلال عملي معهم رأيت العجب العجاب. هؤلاء يا سيدي لا يريدونني أن أخرج من هنا، بل يريدون تقطيع أوصالي كي لا أكشف ما خفي من أعمالهم، برغم أنه لا شيء مخفياً اليوم في البلاد.

كان الحارس آدم يتابع هذه المحكمة الغريبة. لم يعرف لحد تلك اللحظة من كان يقف في الجهة المقابلة من الممر..؟ فأخذ يفكر بمن يقف في مواجهة هذا الجمع، من تراه يكون..؟ المشرحة كما يعرف فارغة، وليس هناك سوى الصبي الراقد في قاعة التشريح، والكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس الذي دخل إلى قاعة الثلاجات..وهؤلاء الذين ظهروا فجأة على شاشة التلفزيون..فمن يكون هناك في المقابل ويتحدثون معه بهذا الإذلال والخوف..؟ فجأة برقت في ذهنة خاطرة..هل يمكن أن يكون هو الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس، يقف كالقاضي، ليحدد مصائر هؤلاء الموجودين في الممر..؟ لكن كيف يمكن للكلب أن يتكلم.. وبالعربية الفصحى..؟ ولو كان هو فلماذا لم يظهر على الشاشة أبداً..؟ وإذا ما كان الذي قد تحدث معهم هو الكلب، فلماذا هجم علي إذن..؟ هل تراه يعرفني..؟ لماذا كان غاضباً مني..؟ ولماذا لم يتحدث معي إذا كان قادراً على الكلام كالبشر..؟ أأنا خيّر أم شرير..؟..لكن من يؤكد أن الكلب هو الذي كان يقف في مواجهة هؤلاء..؟ لا.. لا يمكن أن

يكون ذلك صحيحاً، لكن من تُرى كان يقف في مواجهة هؤلاء دون أن أراه، أو تنقله القناة الرسمية للحكومة..؟

انتبه لما يجري على شاشة التلفزيون، فرأى كيف تجرأ آدم التاجر، الذي كان يتزعم المجموعة، ليقول مرتبكاً رداً على أقاويل الجثة الهاربة:

- هل رأيت يا سيدي ومولاي كيف يتحدث هذا التافه ويتطاول علينا وعلى أسياده ؟ كيف يتجاوز على السادة الأشراف، ويتهمنا بأننا نريد تقطيع أوصاله بينما كل ما نريده نحن هو أن يبقى في المشرحة ولا يتسكع في الطرقات يسب هذا ويشتم ذاك، يكشف الأسرار التي تمس أمن الدولة والمواطن وتعطل سير التحقيق.

كانت الجثة المتهمة التي تجثو أمام الذي لم يكن ظاهراً على الشاشة، خائفة من أن يقتنع بكلام آدم التاجر، لكنها تجرأت على التقدم أكثر حينما رأت تلون الممر بالشعاع الفسفوري من الأصفر وتحوله إلى اللون البرتقالي فالأحمر، وهذا دلالة على الغضب مما قالته جثة آدم التاجر.. فالتفتت إلى جثث جمع الرجال والنساء الواقفين برعب وارتباك، ثم توجهت إلى الذي يقف في مواجهتهم قائلةً:

- يا سيدي..انقذني منهم..هؤلاء يريدون تمزيقي، أنهم متفقون على ذلك، بالرغم من أن كل واحد منهم ينتمي لجهة تعادي

الأخـرى سراً وعلانية، فلقد اتحدوا ضدي، لأن الحقيقة ستضرهم جميعاً... أترى هذا السيد المدعو آدم الشيخ، هو لا يدافع عن أحد إلا وقد استلم من صاحبه مبلغا معتبراً، ولا يهاجم أحداً إلا وقد استلم من أعدائه مبلغاً للهجوم عليه، أما السيد آدم الملا فهو جشع جداً، وعلاقاته مريبة جداً مع جميع دول الجوار المتصارعة في ما بينها، يحج إليهم كل سنة، لا يترك دولة منها دون زيارة وتبريك...وأنا بحكم عملي معهم سمعت آدم التاجر يتحدث مع ذاك المسمى آدم الروحاني بأن زميلهم آدم الملا يقبض من الجميع، كما شخصياً بالمقابل قرأت تقريرا كتبه آدم الملا ضدهما، لصالح جهة عليا في البلاد، يتهمهما بأنهما يقبضان من دولة مجاورة .. أنا أعرف الكثير عن كل هؤلاء.. وحتى عن هاتين السيدتين. أعرف أشياء مخجلة.. مخجلة حقاً يعف لساني عن ذكرها..فقد رأيتهما في أوضاع مشينة..أنا أخافهم يا سيدي..فهم لا يرحمون أحداً..كما أنا أخاف من كم الأسرار والمعلومات التي لدي عنهم جميعاً.. الأسرار والمعلومات التي لدي ترعبني..مثلما يرعبهم الكشف عنها..لقد طلبت النقل أو الموافقة على استقالتي، رفضوا جميعهم، بل أخذوا يقنعونني بالبقاء، ليس حباً طبعاً، وإنما كي لا أذهب بعيدا عن أعينهم. وحينما بقيت مصراً على طلبي بالاستقالة، أرسلوا من قام باغتيالي.. وبالمناسبة..كل هؤلاء،

بلا استثناء..حتى النساء، لديهم فرق للإغتيال..ويمكنهم في أية لحظة يقومون بإرسال من يقوم بالهجوم والإغتيال..هذه حكايتي معهم.

كان الحارس آدم يتابع هذه المناظرة العجيبة بين الجثة المقبوض عليها والبقية والشخص الخفي المجهول. وليتأكد مما يجري على الشاشة قام فنظر من البؤبؤ الزجاجي وسط الباب فرأى بعض الوجوه، لكن لم يرَ الشخص الذي يقف قبالتهم، فقد كان خارج حدود البصر. رجع للجلوس على الصوفة الجلدية ليتابع المشهد بكامله من خلال شاشة التلفزيون.

كان الرجال والمرأتان والطبيب الخفر ومساعده في حالة استفزاز وتهيج عصبي برغم الارتباك والخوف الذي كان يلازمهم أصلاً. لقد أعلنت الجثة الهاربة عن الكثير من أسرارهم، وكشفت عن وجوههم الخفية وأسقطت أقنعتهم المحترمة أمام هذه الشخصية المهيبة والمرعبة، فرفعت جثة آدم التاجر هاتفها الجوال وتحدثت بهمس مع شخص ما على الجهة الأخرى المجهولة من خط الإتصال، وحينما أنهت حديثها الهاتفي تقدمت، فجأة، وبجرأة غير متوقعة، قائلةً للذي يقف في الجهة المقابلة له:

- أرجو يا سيدي ألا تتدخل في شؤون الدولة وسير التحقيق، فهذه الجثة الهاربة مطلوبة للقضاء.. وقد حصلنا من مجلس القضاء..

ومن المحاكم المختصة.. على أمر بإلقاء القبض عليها وحجزها في المشرحة.. فمن الأفضل أن لا تتدخل..

انتبه الحارس آدم إلى أن الذي يقف في الجهة الأخرى قد غضب من كلام جثة آدم التاجر، فجاء صوته مزمجراً :

- أتهددني أيها القزم .. ماذا إذا لم أسمح لكم بأخذها ..؟ ماذا ستفعلون..؟

فردت جثة آدم التاجر، بجرأة نادرة:

- عندها عليك أن تعذرنا، لأننا سنأخذها بالقوة.. ونحن كما ترى جاهزون لأخذها..

وبسرعة خاطفة كما في الأفلام سحب رجال الحرس الوطني أسلحتهم، وأخرجت جثث الرجال الأنيقون مسدساتهم، بل حتى جثة المرأتين سحبتا مسدسيهما من حقيبتيهما الجلديتين، وقد تألقت عيونهم إصراراً على أخذ الجثة المتهمة، كما بدا أن الأسلحة في أيديهم منحتهم جرأة متهورة، فقالت جثة آدم التاجر، بزهو:

- ابتعد عن طريقنا سيدي، ولا تدفعنا للقيام بأشياء لا نود القيام بها..دعنا نكمل عملنا، فها هم رجال القوات الخاصة تحاصرك من الخلف أيضاً..انسحب ودعنا نقوم بمهمتنا..

لم تكد تكمل جثة آدم التاجر جملته، ولم يعرف الحارس آدم ما كان يجرى، لكنه رأى كيف انبطح الواقفون على الأرض، ثم بدأ إطلاق نار كثيف جداً بالأسلحة الثقيلة من الخلف.

امتلأ المـمر بالدخان، وانهار السلم من أثر أطلاقة من سلاح متطور. المشهد من شاشة التلفزيون كان أبيض من الدخان، لم يتبين آدم الحارس أي شيء، وشيئاً فشيئاً كشفت شاشة التلفزيون عن المشهد. كان الممر خالياً..لم يكن هناك أي أثر لمن كان فيه قبل لحظات.. انتبه فقط إلى الجثة المتهمة التي كانت قد تمزقت بالكامل على أثر الهجوم. فجأة، انقطع البث التلفزيوني وصارت الشاشة زرقاء بالكامل.

لم يصدق آدم الحارس ما شاهده. كانت شاشة التلفزيون زرقاء.. لا بث من أي فضائية، عراقية أو عربية أو أجنبية. أحس بالارتباك..قام ونظر من خلال البؤبؤ الزجاجي.. كان المـمر خاليا، ولم يكن هناك وجود للرجال أو المرأتين ولا حتى للجثة الممزقة. كان الصمت سائداً في الممر.

رجع آدم الحارس إلى الصوفة الجلدية. كان في حالة ذهول وارتباك، وسأل نفسه عن معنى كل ما رآه ..؟ أين اختفت جثث الرجال والنساء..؟ ومن هو الذي كان يقف في مواجهتها..؟ لماذا لم تعرضه شاشة التلفزيون على الرغم من أن هناك كاميرا تصور الجهة التي كان يقف فيها..؟ أتراه كان يتوهم كل ما جرى بتأثير الأفلام التي يراها..؟.

أحس برغبة في أن يتأكد من كل الأحداث التي شاهدها من خلال شاشة التلفزيون. قام بحذر مرة أخرى متجهاً نحو الباب. نظر مرة أخرى من خلال البؤبؤ الزجاجي، وحينما تأكد من أن الممر خال من أي شيء، مد يده قابضاً على المقبض، وبهدوء شديد وحذر فتح باب الغرفة قليلاً.

مدّ رأسه من فتحة الباب دون أن يخرج بكامل جثته منها. كان الممر خالياً. خرج من غرفته. وقف عند الباب. نظر إلى الدرج فوجده قد تهدم في جوانب منه، إذن فأن ما جرى كان حقيقة، لكن إذا كان الأمر كذلك فأين الجثة الممزقة التي شاهدها في الممر..؟ وأين آثار القتال الأخرى؟ وأين آثار الرصاص على جدران الممر؟ أين الرصاصات الفارغة..؟ فالممر يبدو نظيفاً ولا أثر لقتال جرى فيه.

اقترب من السّلم أكثر، فرأى بقايا أغلفة فارغة لطلقات أسلحة من أحجام مختلفة متناثرة على درجاته، إذن فقد حدث تبادل لإطلاق النار فعلا، لكن لماذا على السلّم..؟ القتال جرى في الجهة الأخرى من الممر وعلى السلّم..؟ .

نظر إلى الجهة الأخرى، حيث قاعة التشريح وقاعة الثلاجات والنافذة، فرأى أن النافذة في نهاية الممر مفتوحة على مصراعيها، والكرسي الذي يُستخدم للصعود إليها أو الدخول منها تحتها..ما هذا الذي يجري معه..؟.

اجتاحه الفضول في أن يذهب إلى قاعة التشريح ليرى الصبي الصغير، لكن فجأة شله الرعب. جمد في مكانه، إذ رأى الكلب الأسود

هائل الحجم كالجاموس يخرج من قاعة الثلاجات. إذن، فلم يكن الكلب الأسود هو الذي كان يقف في مواجهة المجموعة، وإنما كان شخصاً خفياً، فها هو الكلب الأسود أمامه.

وقف الكلب الأسود عند باب قاعة الثلاجات ينظر إليه. بقي للحظات دون أن يخفض عينيه عنه. ظلا ينظران لبعضهما.. كان الحارس آدم واثقاً من أن الكلب الأسود لن يستطيع اللحاق به، فقد جرب ذلك في المرة السابقة، لكنه برغم ذلك أحس بالرعب منه. ظل في مكانه متوجساً، ومتهيئاً للركض إلى غرفته..لكن ما حدث أثار استغرابه..إذ فجأة التفت الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس إلى جهة النافذة، وبشكل لا يحدث إلا في أفلام الخيال العلمي، بدأ جسد الكلب الأسود هائل الحجم كالجاموس ينكمش ويصغر شيئاً فشيئاً، إلى أن صار بحجم كلب عادي. استدار الكلب الأسود، ثم قفز على الكرسي، ومنه إلى النافذة، خارجاً إلى شوارع بغداد وليلها المظلم.

لم يصدق الحارس آدم ما رأته عيناه، أحس بتعب مفاجئ يجتاحه. لم يستطع أن يتحرك إلا بصعوبة، وأحس بأنه لا يستطع أن يفكر بشيء. خطا بهدوء مصحوب بالتعب إلى غرفته. وحين وصل بابها لم يستعجل في فتحها خوفاً ورعباً.. لكنه أحس برغبة قوية في النوم الذي لا يأتيه إلا بصعوبة شديدة.. كان مرهقاً بشدة فقد كانت هذه ليلة حافلة بالأحداث الغريبة والأسرار المغلقة التي شتته وزادته غموضاً وعزلة.

دخل غرفته الضيقة، وألقى بنفسه منهكاً على الصوفة الجلدية. راوده شعور بالضياع. أحس أنه في متاهة أشباح غريبة ومغلقة على أسرارها، وأن هذه ليست بمشرحة بغداد فحسب، وإنما هي متاهة بغداد أيضاً.

حاول وهو متمدد على الصوفة الجلدية أن يجد تفسيراً لكل ما مر به، فلم يستطع، أحس بالظلام يكبس على ذهنه وعينيه، وأنه بدأ ينحدر إلى لجة النوم العميقة بهدوء لأول مرة، لكن لا، ثمة طرق على الباب.. تصور أول الأمر بأنه ربما يتوهم هذا الطرق..لا..لا..إنه لا يحلم.. ثمة من يطرق على الباب.. لا..لا. إنه يحلم..وغاب في نومه.

(12)

صباح الجثث

لم يكن آدم الحارس قد نام طويلاً حينما فزّ فزعاً، على أثر طرقات خفيفة على الباب.. لقد غفا إذن، فقد كان يسمع طرقات على الباب وظن نفسه يحلم بتلك الطرقات.. كان الغرفة مضاءة، إذن أنه قد ألقى بنفسه على الصوفة دون أن يطفئ الضوء، لكن من تراه يطرق على الباب.. فالمشرحة خالية.

ألقى نظرة على الساعة المنضدية التي كانت تشير إلى الخامسة فجراً. وبالرغم من أنه استيقظ من غفوته على طرقات الباب إلا أنه لم يكن متأكداً بالكامل بأن هناك من يطرق الباب، إلى أن صار الطرق يأخذ شكل ضربات قوية على الباب.

نهض بحذر شديد ممزوج ببقايا نعاس..نظر من البؤبؤ الزجاجي.. أحس وكأنه يصحو بالكامل..لم يرَ شيئاً..ارتد إلى الوراء، فكر مع نفسه: إن المشرحة خالية..فجأة تذكر أنه نسي الصبي في قاعة التشريح وحيداً..؟ نعم..لا أحد في المشرحة سواهما..لكن من يطرق الباب..؟

فتح الحارس آدم الباب بحذر شديد. كان الصبي يقف أمامه وعلى وجهه علامات خوف جامد. نظر الصبي إلى آدم الحارس بما يشبه التوسل قائلا:

- أنا خائف.. لقد تركوني وحدي وخرجوا.. حتى جدتي تركتني وهربت..

بقي الحارس آدم صامتاً، مبحلقا في الصبي للحظات، ولا يدري كيف جاءته فكرة دعوة جثة الصبي إلى الداخل، فهو لا يحس بالخوف من جثة الصبي هذه..بل أحس معها بإرتياح يبدد عنه وحشته في هذه الغرفة الخانقة. بصمت ودون أن يسأل الصبي أي سؤال فتح الباب للجثة الصغيرة التي دخلت وهي تتحرك حركة الموتى البطيئة الجامدة.

أغلق الحارس آدم الباب خلفه ثم جلس على الصوفة الجلدية. ظل الصبي الصغير واقفاً منتظراً أن يدعوه الحارس آدم للجلوس، وبإشارة من الحارس آدم جلس على الطرف الآخر من الصوفة.

ظلا صامتين لفترة قصيرة. كان الحارس آدم لا يعرف كيف يبدأ معه..أخذ يتأمل الصبي ليتأكد من أن ما يراه حقيقة وليس من شطحاته وأوهامه. انتبه إلى أن صدر الصبي، في جانب منه، مخسوف قليلاً، وأن تحت قميصه يشي بأن شيئاً ما قد تحطم في قفصه الصدري، لكن لم تكن هناك جروح ولا دماء..أحس بتعاطف نحوه . فجأة، وجد الحارس آدم نفسه يسأله:

- ما اسمك..؟

فأجاب الصبي بهدوء دون أن يرفع رأسه إليه:

- اسمي آدم .

فسأله الحارس آدم مندهشاً :

- آدم ..؟ أنت أيضا اسمك آدم..؟

- نعم.. اسمي آدم الصغير، وأبي اسمه آدم أيضاً..

- أنا أيضا اسمي آدم.. وكذلك أبي اسمه آدم..

- أعرف.. اسمك آدم الحارس..

نظر الحارس آدم إليه مستغرباً وسأله:

- ومن أين تعرف أن اسمي آدم..؟

ارتبكت جثة الصبي قليلاً، ثم قال باستحياء:

- جثث النساء اللواتي كن في القاعة ذكرن ذلك أثناء الحديث..

- جثث النساء كن يتحدثن فعلاً..؟

- نعم..هن يتحدثن..وقد هربن من المشرحة..

- ومن أين يعرفن أني أنا الحارس آدم..؟

- لا أعرف من أين يعرفن ذلك.. لكنهن تحدثن عنك.. وذكرن ذلك..

صمت الحارس آدم للحظات، حدق إلى الأرض قليلاً، كان يحس بأنه يود أن يسأل جثة الصبي آدم الصغير عن أشياء كثيرة لكنه لا يدري من أين يبدأ.. رفع رأسه وسأل جثة الصبي :

- هل رأيت شيئا غير اعتيادي في الممر يا آدم..؟
- لا.. مثل ماذا.. ؟
- مثلاً.. مثلاً..كلب أسود هائل الحجم كالجاموس..؟

نظرت جثة الصبي آدم الصغير إليه بخوف واستغراب وقالت:

- كلب أسود هائل الحجم كالجاموس؟ كيف كالجاموس..؟ هو إما كلب وإما جاموس..؟
- كان هكذا.. ببساطة... كلب كبير الحجم...بل هائل الحجم كالجاموس..
- وأين كان هذا الكلب الأسود..؟

سألت جثة الصبي ذلك بنبرة خوف واضح، فحاول الحارس آدم أن يخفف عنه..فقال:

- هنا في الممر، لكن لا تخف يا آدم، هاذ الكلب هائل الحجم كالجاموس تغير حجمه، وانكمش حتى صار بحجم كلب طبيعي..ثم قفز من النافذة.. وخرج..

نظرت جثة آدم الصغير إليه وقالت مستغربة:

- أنت تمزح ..؟

- لا.. أنا لا أمزح.. أنا رأيت ذلك بنفسي.

أحس أن جثة الصبي مسها الخوف من تأكيده على رؤية الكلب الأسود الهائل الحجم كالجاموس في الممر، فأراد أن يخفف عنها، لأنها بالتأكيد لم ترَ شيئاً، لذا سألها ليغير الحديث:

- هل كانت العجوز جدتك..؟

- نعم.. إنها جدتي حواء..

- حواء ..؟

- نعم ..حواء..

- ولماذا تركتك وحدك هنا وذهبت لو كانت جدتك..؟

الصبي آدم الصغير صمت قليلاً. تـردد في الإجابة، ثم بعد لحظات قال:

- ذهبت لتنتقم..

- تنتقم..؟

- نعم.. تنتقم..

- تنتقم ممن..؟ ولمن تنتقـم؟

صمتت الجثة الصبي مجدداً قليلاً، انتبه الحارس آدم إلى أن جثة الصبي تعرف الكثير من الأشياء، لذلك فهي لا تريد البوح، لكنها بعد لحظات أجابت:

- تنتقم من الذين قتلوا أبي وأمي..
- ومن الذين قتلوا أباك وأمك ؟
- جماعة في منطقتنا قتلوا أبي، وكانت أمي معه..
- أية جماعة..؟
- لا أحفظ الأسماء جيداً.. ومنذ ذلك الوقت بدأت جدتي تنتقم لهما.

صمت الحارس آدم ليفسر مع نفسه حديث آدم الصغير، ووجد نفسه يسأله :

- كيف تنتقم لهما.. وهي امرأة عجوز..؟
- بمساعدة عمي الأصغر آدم...
- عمـك آدم.. ؟
- نعم، عمـي أيضا اسمه آدم..
- وكيف يساعدها..؟
- عمي آدم تعرّف على جماعة أخرى في منطقتنا تعادي الجماعة التي قتلت والديّ..، أخذ يتعاون معهما من أجل الانتقام لأبي وأمي..

أحس الحارس آدم بأن جثة الصبي آدم الصغير أخذت تكشف له جوانب كانت غائبة عن تفكيره، فسألها :

- في أي منطقة تعيشون؟
- نحن من حي العامل..
- وكيف يتعاون عمك مع الجماعة الأخرى.. ؟
- جدتي ذهبت معه إليهم وقالت لهم هي لا يعنيها من أية جماعة أو مذهب هم، فهي تريد الانتقام لأبي وأمي، وهي تعرف أن الذين قتلوهما من الجماعات المعادية لهم..واتفقت معهم..
- وكيف تعرف أنت كل هذه الأمور..؟
- كانت تتحدث مع عمي آدم في البيت أمامي. كانا حينما ينظران إليّ يزداد غضبهما.. كانت تخطط هي للانتقام والجماعة الأخرى تنفذ..كانت تطلب من عمي بمصادقة بعض أعضاء الجماعة التي قتل بعض أفرادها أبي وأمي.. والسعي لدعوتهم إلى البيت، ثم تقوم هي بإخبار الجماعة الأخرى ليتبعوهم ..أما ليخطفوهم وإما ليقتلوهم في الشارع مباشرة.. وأحيانا كانت ترسلني لإخبار أحد أفراد الجماعة الأخرى من خلال نقل جملة ما أقولها له..
- ألم ينتبه إليهما أحد..؟ أقصد لجدتك وعمك..

- لا.. جدتي لا تقتل بيدها وإنما تخبر الجماعة الأخرى كي تقوم بقتلهم..

فكر الحارس آدم مع نفسه، وسألها: في أي عالم هو يعيش..ها هو أمام جثة صبي لم تتجاوز الثامنة بينما هي غارقة في القتل..نظر إلى جثة الصبي آدم الصغير وسأله:

- وكيف جاءوا بكما إلى هنا.. أنت وجدتك حواء..؟

- كانت تريد تقديم معاملة لدى مؤسسة الشهداء.. وكنت أريد الذهاب للمدرسة لكنها طلبت مني الذهاب معها.. وكنا هناك حينما سمعنا انفجاراً.. ثم وجدنا أنفسنا هنا.

- ولماذا تركتك هنا وذهبت وحدها..؟

صمتت جثة الصبي وقالت بإنكسار:

- لا أدري..؟ ربما ذهبت تبحث عن عمي آدم، فهو منذ أسبوع قد اختفى.. وسمعنا أنه قتل بكاتم صوت.. جدتي ذهبت تبحث عنه في المستشفيات الأخرى.. ربما كان عمي هنا أيضاً..

توقفت جثة الصبي آدم الصغير عن مواصلة حديثها، إذ صمتت للحظة ثم سألت:

- هل هناك غيرنا هنا في هذا المكان..؟

- طبعا..هنا كان العشرات من الجثث غيركم...وكان بينهم من جاءوا بهم في الأسبوع الماضي من المصابين بطلقات من مسدسات كاتمة للصوت.. ربما كان عمك آدم بينهم..لا أعرف..لكنهم جميعاً هربوا.. تركوا قاعة الثلاجات وخرجوا إلى الشارع..حتى جثة جدتك وجثث بقية النساء غادرت المشرحة..لم يبق غيرك هنا يا آدم الصغير.

فسألت جثة الصبي ببراءة:

- وأنت.. ؟ لماذا لم تهرب..؟

- أنا..؟

أجاب الحارس آدم مستغرباً من السؤال.

- نعم أنت..؟

- أنا.. أنا حارس المشرحة.. كيف أهرب وأترك المشرحة؟

- ولماذا تحرس المشرحة..؟

- لماذا أحرس المشرحة..؟ لا أدري لماذا أحرسها..؟ أعرف أن عملي هو أن أحرس المشرحة..، أن أحرس الجثث..

نظرت جثة الصبي إليه باستغراب، وقالت:

- ولكنك جثة أيضا..

أحس الحارس آدم بالارتباك، فقال منزعجاً:

- لا.. أنا لست مثلكم..

- أأنت حي أم ميت مثلنا..؟

- أنا..؟

- نعم ..أنت..هل أنت حي أو ميت..؟

- أنا حي.. أنا أعمل هنا حارساً لمشرحة بغداد..

نظرت جثة الصبي إليه وقالت ببراءة:

- لكني سمعت جثث النساء في قاعة التشريح يتحدثن عنك بأنك كنت حارس المشرحة سابقاً، وجاء بعض الذين أرادوا سرقة بعض الجثث فوقفت بوجههم، فأطلقوا عليك طلقة في جبينك، فمتَّ... ولأن لا أهل لديك أبقوك حارساً في المشرحة، مستمراً في عملك .. لكنك جثة، أنت ميت مثلنا..

أحس الحارس آدم بالرعب من كلام الصبي الذي كان يتحدث ببراءة وصدق وعفوية. سرت قشعريرة خوف في كيانه...

نهض الحارس آدم مفتشا في الغرفة عن مرآته التي لم ينظر إلى نفسه فيها منذ ستة أشهر تقريباً، ليتأكد مما قالته جثة الصبي آدم الصغير. وأخذ يهمهم مع نفسه:

- أين هي.. أين هي..؟

- عن أي شيء تفتش..؟

- عن المرآة الصغيرة التي كانت عندي لأتأكد من كلامك..

- إنها هناك بالقرب من الكتب..

انتبه الحارس آدم إلى أن المرآة ملقاة على مجموعة من الكتب. قام إلى زاوية الغرفة حيث الكتب. أخذ المرآة، فوجدها قد تهشمت بالكامل من مركزها، بحيث لم يكن النظر فيها. نظر إلى نفسه، فلم يجد انعكاسا لصورته في المرآة. تعجب، وتمتم قائلاً:

- المرآة مهشمة..

فقالت جثة الصبي ببراءة:

- يمكنك أن تتحسس أثر الرصاصة في جبينك.. إنها واضحة..

وبشكل لا إرادي مد الحارس آدم كفه إلى جبينه فتلمس ندبة جفت الدماء حولها في وسط جبينه. لم يشعر إلا وهو ينهار جالساً على الصوفة الجلدية. كان مرعوباً، بينما ظلت جثة الصبي آدم الصغير هادئة وهو تنظر إليه، إذ انتبهت جثة الصبي آدم الصغير إلى أن الحارس آدم لم يكن يدرك أنه ميت مثلهم.

ظل الحارس آدم صامتاً. غرق في تأملاته العميقة التي لم يفصح عنها لجثة الصبي، واستمر في صمته وكأن جثة آدم الصغير غير موجودة في الغرفة. كان يسأل نفسه: كيف أتأكد من كلام جثة الصبي هذا بأني ميت مثله..؟ كيف عرف الآخرون بأني ميت، بينما أنا لا أتذكر شيئاً مما رواه الصبي قط..؟ لكن ما معنى هذه الندبة العميقة التي تشبه أثر رصاصة في وسط جبيني..؟ من أين جاءت..؟ أنا لا أتذكر شيئاً..؟ كيف لي التأكد من أني حي أم ميت..؟ إذا كنت ميتاً كما تقول جثة الصبي فكيف أمارس حياتي الطبيعية هنا في المشرحة..؟ كيف أقوم بواجباتي اليومية وأتعامل مع الموظفين ومع الأطباء والمساعدين..؟

هل هذا يعني أن الجميع موتى..؟ ربما..لم أعد أعرف شيئاً.. نعم..نعم..لقد انتبهت إلى رجال الحرس الوطني حينما جاءوا يسألون عن الجثث الهاربة، لقد كانت تحت حناجرهم أثر خياطة ما بعد التشريح، لقد كانوا هم أيضاً من الجثث الهاربة التي ارتدت ملابس عسكرية، وكذلك الطبيب الخفر ومساعده كانا يحملان الإشارات نفسها على أعناقهم، بل إن الطبيب الخفر كان له أثر واضح على وجهه أيضاً، بالتحديد عند حافة شعر الرأس، وهو عادة أثر لفتح الجمجمة.. لكن ماذا عن البقية..؟ كيف كانوا يمارسون حياتهم..؟ أية حياة كانوا يمارسونها إذا كانوا هم أمواتاً بالأساس؟ لقد رأيت الجثث الهاربة من النافذة وهم يعبرون الجسر.. كيف سيعيشون إذا كانت هي جثث تمشي.. لا أكثر..؟

فجأة، التفت الحارس آدم إلى الصبي آدم الصغير وسأله:

- هل أنت متأكد من أنني ميت يا آدم..؟

ارتبكت جثة الصبي آدم الصغير، فقالت بطريقتها العفوية الصادقة:

- لا أدري، أنا سمعتهم يقولون عنك ذلك..

- كيف نتأكد من ذلك..؟

- لا أعرف كيف تتأكد من ذلك..؟

- تعال .. تعال معي.. الساعة الآن في حدود الخامسة والنصف.. لنذهب إلى شوارع بغداد مثل بقية الجثث الهاربة ونتأكد هناك..

- كيف ستتأكد..؟

- لا أدري، لكن هيا لنذهب.. ماذا نفعل هنا في هذه المشرحة التي لم تعد مشرحة..

- لم أفهم..

- المشرحة صارت هناك في الشارع..الجثث جميعها هربت..

نهض الحارس آدم من مكانه وكذلك نهضت جثة الصبي آدم الصغير، خرجا من الغرفة . أغلق الحارس آدم الباب خلفه، واتجه مع جثة الصبي آدم الصغير نحو السلم.

صعدا معاً إلى الطابق الأرضي. لم يكن أحد هناك. توجها إلى الباب الخارجي.. أخرج الحارس آدم مفتاحاً من جيبه وفتح الباب الرئيس، ثم فتح بوابة المدخل الخارجية، وخرجا إلى الشارع.

كان الفجر قد بدأت خيوطه البيض تلون فضاء بغداد المعتم، وتكشف عن المشرحة شيئاً فشيئاً.

عند منعطف الشارع انتبه الحارس آدم إلى حركة بعض السابلة. كانت حركة بطيئة، ونظراتهم تائهة، وبلهاء، وكأنها تنظر في الفراغ، وكانت آثار التشريح وندوبه واضحة على وجوهه أو أجسادهم. مرت سيارة بقربهما، توقفت السيارة لسبب ما. نظر الحارس آدم إلى السائق فلمح آثار خياطة تشريح الجمجمة على جبينه.

عند نقطة التفتيش توقفا. سلم على الجندي الخفير الذي كان هناك، فلاحظ أثر طلقة على عنقه. هل يا ترى جميع الناس هنا ليسوا إلا جثثاً هاربة ؟

وبالرغم من أن الحارس آدم كان يمشي إلى جانب جثة الصبي آدم الصغير، إلا أنه كان غارقاً في تأملاته، وكان يسأل نفسه: لماذا تهرب الجثث من المشرحة..؟ أتخاف من أن تتوعل في رحلة الموت..؟ أتخاف مما سيأتي بعد الدفن في القبور؟ وكيف ستعيش هذه الجثث..؟ هل تتحرك بالروح أو بدونها..؟ وكيف له أن يتأكد من نفسه..هل هو حي أو ميت..؟.

كانت تباشير الفجر قد بدأت ملامحها واضحة في السماء، ومع انبلاج الخيط الأبيـض، رأى الحارس آدم جموع الناس والسيارات وهي تعبر الجسر، وبدأت الحياة الميتة تدب في شوارع بغداد.

كانت شوارع يغداد مكتظة بالجثث الهاربة. كان هو شاهد الكثير منها في قاعة الثلاجات، بل يعرف بعضها، متأكداً من موتها، كان متأكداً من أن جميع الناس هنا في شوارع بغداد ليسوا سوى جثث تتحرك، لكنه لم يكن متأكداً من شيء واحد، هل هو حي أو ميت..؟

أخذ بيد الصبي آدم الصغير، قائلاً له:

- عليّ أن أعرف هل أنا ميت أو حي يا آدم، لكن كيف لي أن أعرف ذلك..؟

نظرت جثة الصبي آدم الصغير إليه نظرة مليئة بالطيبة والحزن والشفقة، وقالت للحارس آدم وكأنها تخاطب طفلاً :

- لا أعرف كيف ستتأكد من ذلك يا آدم، وأنا لا أستطيع أن أجيبك هل أنت حي أو ميت؟
- من يستطيع أن يجيبني إذن ؟
- لا أحد.
- كيف لا أحد..لا بد أن يأتي أحد ليقول لي الحقيقة..

نظرت جثة الصبي آدم الصغير إليه بحزن وقالت:

- لا أحد سيأتي يا آدم.. لا أحد سيأتي.. أو.. لا أدري.. ربما سيأتي..

بغـــداد - بيروت- برلين

كانون الثاني 2012

شكر وتقدير لا بد منه

لا بد لي وأنا أعيد تدقيق وطباعة نص رواية (مشرحة بغـداد) من أن أتوجه بالشكر والتقدير لجميع الأصدقاء من الكتاب والفنانين والنقاد والصحافيين والباحثين والقراء الذي لم يبخلوا علي بالملاحظات القيمة، والذين شاركوني رصد الهنات الطباعية والإملائية واللغوية في الطبعة الأولى، وكل النقاد الذين شرفوني بالكتابة عنها مقالات رائعة، والأدباء الذين عبروا في مواقعهم الأدبية والألكترونية الخاصة، ورسائلهم الشخصية لي عن رأيهم القيم والعالي بالرواية، وأذكر هنا مع الإحتفاظ بقيمة الألقاب الأدبية والعلمية: حسين السكاف، هدية حسين، محمد خضير، عبد الرحمن مجيد الربيعي، عدنان حسين أحمد، حسن النواب، د. حاتم الصكر، الدكتور ناظم عودة، فيصل عبد الحسن، جلال زنكابادي، عواد ناصر، الدكتورة أسماء سنجاري، بريهان قمق، عادل علي، علي البوجديدي، البروفيسور عقيل المرعي، كما أجد نفسي هنا ملزماً بذكر الأسماء التالية مع الإحتفاظ بقيمة الألقاب لأصحابها لما قدموه لي من خدمة بمراجعة النص:

الشاعر والروائي الصديق حميد العقابي

الدكتور الباحث والناقد محمد عبد الرضا شياع.

بُرهان شاوي

2014 – برلين

الفهرس

1. الذبح بسكين المطبخ في البانيو 5
2. الآخرون 19
3. تأملات من قاعة التشريح 31
4. يوم عراقي عادي جداً 41
5. الهؤلاء .. والمنسيون 57
6. الضيوف 93
7. حوّاء هانوفر 105
8. فضول الموتى 129
9. حواء البغدادي 135
10. الجثث الهاربة 171
11. حراس السجن المظلم 187
12. صباح الجثث 205
13. شكر وتقدير لا بد منه 221

منشورات ميزوبوتاميا

دار ميزوبوتاميا
للطبع للنشر والتوزيع

عراقيات

الرحيل الى ميزوبوتاميا..... امل بورتر
العراق ما بين الحربين - رسائل ضابط انكليزي..... امل بورتر
العراق المعاصر برؤى أجنبية .....ترجمة : د. محمود أحمد القيسي
ثورة وزعيم.....د. عبد الخالق حسين
الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق.....د. عبد الخالق حسين
أشجان وأوزان الهوية العراقية.....د. ميثم الجنابي
التوليتارية العراقية.....د. ميثم الجنابي
الحركة الصدرية ولغز المستقبل .....د. ميثم الجنابي
فلسفة الثقافة البديلة في العراق .....د. ميثم الجنابي
فلسفة الهوية العراقية.....د. ميثم الجنابي
العراق - حوار البدائل .....د. ميثم الجنابي - حاوره مازن لطيف
الصحافة الرسمية في العراق ما قبل جريدة الوقائع العراقية.....سالم الالوسي
الطاغية والطغيان في العراق.....شامل عبد القادر
رحلة يوسف رزق الله غنيمة الى ايران .....طارق الحمداني
بغداد تبوح باسرارها.....عباس عبود
بغداد ذلك الزمان .....عزيز الحاج
صحائف بغداد .....فؤاد طه
مثقفون عراقيون.....مازن لطيف
محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي .....محمد مبارك
الان والغد .....مهدي الحافظ
العراق.. نبؤات الامل .....مهدي الحافظ
نصوص بغدادية نادرة .....د. طارق نافع الحمداني
فيصل ملك العراق .....مز ستورث أرسكين
شارع الرشيد في الذاكرة العراقية.....سالم الالوسي
حكاية من بغداد .....أثيل ستيفانا درور
بغداد في عهد الخلافة العباسية .....غي ليسترنج
تقويم العراق.....رفائيل بطي
وزراء بغداد .....طارق حرب
التحضر في المجتمع العراقي .....منى العينة جي
لطيف العاني.. مصور من العراق .....لطيف العاني

منشورات ميزوبوتاميا

الأعلام

الامام علي - القوة والمثال ..... د. ميثم الجنابي
هادي العلوي .. المثقف المتمرد 3(طبعات)..... د. ميثم الجنابي
محمد مكية : رائد العمارة العراقية .....علي ثويني
محطات في فكر وحياة هادي العلوي ..... مازن لطيف
مير بصري .. سيرة وتراث..... فاتن محيي محسن
الاب انستاس الكرملي..... كريم عبد الحسين فرج
معاوية الثاني والتشيع في البلاط الاموي .....محسن خزعل المحسن
الجواهري بلسانه وبقلمي..... سليم البصون
استذكارات فنية ..... قحطان جاسم جواد
انور شاؤل.. الريادة في الادب والصحافة .....محمد جبير
عامر عبد الله... النار ومرارة الامل..... عبد الحسين شعبان
رجال وتاريخ .....حميد السعدون

العلوم الإنسانية

الثقافة القانونية للمهندسين والمقاولين ..... د. حميد لطيف الدليمي
منهجية البحوث العلمية..... د. حميد لطيف الدليمي
التثقيف الصحي والبيئي.....علي اسماعيل الجاف
في الاحوال والاهوال ..... فالح عبد الجبار

الفلسفة

استعادة ماركس .....سعد محمد رحيم
مفهوم الاخلاق عند ابي حيان التوحيدي .....محمد مخلف الدليمي
حكمة الروح الصوفي..... د. ميثم الجنابي
كتاب الجيب للمحكومين بالاعدام .....خضر ميري

السياسة

تجارب دنماركية.....ضياء حميو
عن الثورة واليسار ..... عصام الخفاجي
إشكالية الدولة ..... علي حسن الفواز
اليسار الصعب ..... كاظم حبيب
الثورة العربية والمستقبل..... د. ميثم الجنابي
الفوضى الامريكية..... د. حميد السعدون
أزمة الاسلام ..... برناد لويس
الماسونية ..... عبد الكريم الزهيري

الأديان

الصابئة المندائية ..... نعيم عبد مهلهل
هيئة الدفاع عن ابتاع الديانات والمذاهب في العراق..... كاظم حبيب
يهود العراق..... مازن لطيف

منشورات ميزوبوتاميا

التاريخ المنسي ليهود العراق ..... مازن لطيف
موسوعة الاضرحة والمزارات العراقية ..... مازن لطيف
الاستشراق اليهودي..... عباس سليم زيدان

التاريخ

بغداد في عصر الخلافة العباسية..... (ليسترنج)
تأسيس بغداد.. الفلسفة والرموز ..... زهير الهواري

الشعر

المنتفض ..... احمد كريم
اجمل المخلوقات رجل..... بلقيس حميد حسن
لالىء طيفها ألق ..... حميد نجم الزبيدي
عن الوردة وهي تطيح بحياتي ..... حيدر الحجاج
ربما ..من يدري؟ ..... خزعل الماجدي
شـــوغات ..... خزعل الماجدي
كفوف الملائكة..... د. مهدي المانع
ثلاث مدن ، ثلاثة اسابيع في الصين ..... سعدي يوسف
الاعمال الشعرية الكاملةج1 ..... سلمان داود محمد
الاعمال الشعرية الكاملةج2 ..... سلمان داود محمد
أسئلة طويلة مقلقة ..... عبد العزيز الحيدر
قمة الهاوية..... عبد النبي الشايع
هواجس ملتبسة ..... عبد النبي الشايع
غواية الساعات..... عدنان الفضلي
اوروك سليل التعب ..... علي الشيال
نبي الأنوثة..... فاطمة العراقية
ذاكرة الرماد ..... كاظم الواسطي
كثر الحديث ..... كريم العراقي
مرثية البياض ..... محمد حريب
ضماد الاسئلة ..... ناظم الساعدي
الف ميل من الوجع ..... ناظم رشيد
سقوف ..... هادي الناصر
طريقة في الغناء (شعر) ..... ريسان الخزعلي
الليالي العراقية..... دنيا ميخائيل
هوامش كحل ..... حامد الراوي
خريف الأسئلة..... علي طالب
البنفسج المر ..... علاء جاسب
خسارات فاتنة..... ماجد طوفان
منك واليك ..... عبد النعيم الساعدي
صحبة ليل طويل..... عزيز عبد الصاحب

منشورات ميزوبوتاميا

رائعة ماجدولين.....نادية عزيزة
موسيقى الصباح .....رسمية محيبس
يحدث دائما .....سامي مهدي

شعر شعبي

مرايات ونده .....حمود كعيد
ابو سرحان.. كرستال القصيدة الشعبية العراقية .....ريسان الخزعلي
الحاج زاير .....ريسان الخزعلي
مدخل للشعر الشعبي.....عبد الكريم هداد
عرس الماي .....كاظم غيلان
لون الليالي صعب .....كاظم غيلان
شذارت من العامي والمولد.....محمد حسين الاعرجي
عرس الماي .....كاظم غيلان
وضوح أول.....طارق ياسين
حزن منفى.....عبد الكريم هداد
ضوه بسرداب.....أدهم عادل
غنائيات وردة جمر .....ريسان الخزعلي
الهايكو السومري.....ريسان الخزعلي
شواطي الروح.....بشير العبودي

نصوص/مقالات

عراق رومي شنايدر .....نعيم عبد مهلهل
غراميات شاكيرا وسلمان المنكوب.....نعيم عبد مهلهل
الجبايش .....نعيم عبد مهلهل
الناصرية.....نعيم عبد مهلهل
غابريل ماركيز يكتب عن سامراء .....نعيم عبد مهلهل
وجوه مرت.. بورتريهات عراقية.....عبد الرحمن مجيد الربيعي
اصباع السرد.....وارد بدر السالم
انطقة المحرم .....سعد محمد رحيم

الرواية والقصة

نبوءة متأخرة(قصص).....الفريد سمعان
الزمرد والذباب(رواية) .....عبد الكريم العبيدي
بائع الضحك(قصص).....ابراهيم سبتي
العربة الخضراء(رواية).....اسماعيل شاكر
الكلب الملاك(قصص) .....صفاء سالم أسكندر
الشاكرية(رواية).....كريم العراقي
وهم الطائر(قصص).....ناصر قوطي
فيروز الأحدب (قصص).....نيران العبيدي

منشورات ميزوبوتاميا

المعدان (قصص) ..... وارد بدر سالم
العودة الى البيت (رواية)..... وديع شامخ
المعبث(قصص) ..... علي الحديثي
الشاكرية(رواية) ..... كريم العراقي
هروب الموناليزا(رواية)ط1+ط2 ..... بلقيس حميد حسن
للهروب خطوة اخرى(رواية) ..... توفيق حنون المعموري
حكاية حب في بغداد(رواية مترجمة)..... اثيل ستيفانا دورو
بوصلة غضبان بن شداد(رواية) ..... حسن عبد الرزاق
ابواب الفردوس(رواية)..... ناطق خلوصي
موت اكبر من موت(قصص)..... جوتيار تمر
رسائل حب يهودية(رواية) ..... جاسم المير
العودة الى الجذور ..... سيف الالوسي
صبـــاور..... شكار المياح
الزنبقة البيضاء..... جمانة القروي
عابر حدود ..... حميد الكفائي

المذكرات

راحلون وذكريات ..... عزيز الحاج
رحلات تمفصلية ..... عزيز الحاج
مذكرات داود سمرة..... داود سمرة
حدث بين النهرين ..... عزيز الحاج
غصمن مطعم بشجرة غريبة..... صلاح نيازي
نقاط الحبر الأخير(مذكرات أمير الحلو) ..... أمير الحلو
سجين الشعبة الخامسة ..... محمد السعدي

النقد الأدبي والثقافي

ملامح اسلوبية في الشعر الحديث ..... جاسم الخالدي
حوارات في النقد العراقي من التأثر الى الحداثة ..... جاسم محمد
حفريات النص الشعري ..... حمد الدوخي
سيمياء النص..... حمد الدوخي
أقنعة النص ..... صفاء خلف
الثقافة العراقية- مقتربات في النقد الثقافي..... علي حسن الفواز
خطاب الحداثة- دراسة ثقافية لتجربة الشعر الحر في العراق ..... كريم شغيدل
المثقف التابع ..... مازن لطيف
الطائر والنخلة_قراءة في تجربة الشاعرة حسب الشيخ جعفر..... ريسان الخزعلي
في الطريق الى الحداثة ..... سامي مهدي
ذاكرة الشعر..... سامي مهدي
اصابع السرد ..... وارد بدر السالم
الدروايش والمرايا ..... حمد الدوخي

منشورات ميزوبوتاميا

افاق نقدية.. قراءة في المتون وفي مناهج التحليل ..... سامي مهدي

الروائيون العراقيون اليهود - دراسة في الثقافة والمتخيل والتجريب الروائي ..... د.خالدة حاتم

المسرح

الاخراج المسرحي في العراق ..... عدنان منشد

قبل النخيل ارى الغروب(نصوص مسرحية) ..... محمد السيد محسن

علم الجمال في المسرح الحديث ..... ماري آن شاربونيير

الخروج الى الداخل..... حيدر الكناني

فن المسرح والانسان الحديث ..... بينجي علي عزاوي

الفن التشكيلي

الفن التشكيلي والمدينة..... ياسين النصير

التشكيل الجميل الجمالي ..... عقيل مهدي

ضياء العزاوي .. منوغرافيا..... ضياء العزاوي

فائق حسن .. الحضور الحي والبصمة الساحرة..... قاسم محسن

العمارة

محمد مكية.. رائد العمارة العراقية ..... علي ثويني

في رحاب مأذنة سوق الغزل ..... معتز عناد غزوان

دار ميزوبوتاميا

طبع _ نشر _ توزيع

العراق _ بغداد_ شارع المتنبي

البريد الالكتروني: hamawendi@yahoo.com

Mazin24@ymail.com

موبايل : 07905139941